مذكرات الأميرة جويدان
زوجة الخديوى عباس الثانى

●

بقلم

الأميرة جويدان

●

دار الهلال

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٥٦ — رمضان ١٤٠٠ — اغسطس ١٩٨٠

No. 356 — August 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي — ١٢ عددا — في جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادي . وبلاد اتحادي البريد العربي والافريقي وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصري بالبريد الجوي . وفي سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادي وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوي .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقي بلاد العالم بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشـة
الفنانة سميحة حسنين

حكاية عائلة جويدان

حكم المماليك مصر لفترة طويلة ، والمماليك هم طائفة من الناس اشتراهم الخلفاء العثمانيون ودربوا من كان منهم صالحا للعسكرية ليكون ضابطا أو جنديا فى جيش الخليفة ، وأصبح المماليك أكبر قوة فى تلك الامبراطورية التركية وحكموا البلاد الخاضعة لهم بواسطتهم .

واستقل المماليك بحكم مصر ، ولم يكن الخليفة العثمانى أو الباب العالى كما كانوا يسمونه ، يهتم بمن هو الحاكم أو المحكوم ، فان كل ما يهمه هو الايرادات والأموال ، فالمملوك الذى يحكم مصر أيا كان اسمه عليه أن يورد الى الخزانة التركية الجزية أو الضرائب المطلوبة من البلد بالتمام والكمال ، ولا يهم كيف جمع المملوك الأموال من الناس ، ولا المبالغ التى جمعت منهم ، فالمهم الا يقل المبلغ المدفوع عن الحصة التى حددت .

وطبعا فان هؤلاء الحكام كانوا يجمعون أقصى ما يمكنهم من أموال الشعب ، ويدفعون الضريبة ويستبقون ما حصلوه من زيادة لأنفسهم .

وكان تحت يد المملوك الحاكم ، حكاما أو مماليك آخرين يحصلون من الناس ، وهم أيضا يحصلون بالزيادة ويستبقون الزيادة لانفسهم كأجر لهم .

وكان المصرى هو الضحية الذى عليه ان يدفع ويدفع ولا ياخذ .

وهكذا اصبحت عند المصريين عادة لا زالت سـائدة حتى اليوم عند البعض منا وهى عادة اخفاء النعمة خوفا من العين ، عين الحاكم ، وأعوانه من الجباه والملتزمين بتوريد المال والذين يجمعون لحسابهم ولحساب رؤسائهم ولحساب الحكام ولحساب الخليفة .

وفى نهاية هذه الفترة ظهر نابليون فى أوروبا ، وقاد الحملة الفرنسية الى مصر عام ١٧٩٨ وحارب المماليك وانتصر عليهم فى معركة امبابة .

واستسلمت فلول المماليك عند بوابة امبابة التى بنى مكانها الآن مسجد خالد بن الوليد وسمى الشارع الذى وقعت فيه معاهدة الصلح افينو دى باى ، وترجم الاسم فيما بعد الى شارع السلام ، ولا زال الشارع موجودا حتى اليوم .

ونتيجة لحملة نابليون ، التى ادعت انها قادمة لتطبيق مبادىء الثورة الفرنسية وهى الحرية والاخاء والمساواة ، ان ظهرت امام الشعب المصرى والمصريين مفاهيم جديدة وافكار حديثة .

ثم زالت الحملة النابوليونية عن مصر سنة ١٨٠١ ، كما زالت غيرها من الحملات . وعاد المماليك محاولين ان يستردوا حكمهم ومجدهم وهيلمانهم .

ولكن المصريين كانوا قد ادركوا ان حكم المماليك ليس هو أبدع ما يكون ، وان الناس لهـا حقوق وعليهـا واجبات ، وليس المملوك الحاكم وحده هو صاحب كل الحقوق ، والفرد المصرى وحـده هو حامل العبء والضغط .

وفى عام ١٨٠٥ ظهر جندى مرتزق من جنود الجيش العثمانى قدم من بلدة قولة فى البانيا يقود فرقة البانية كان الخليفة قد أرسلها الى مصر لمقاتلة الفرنسيين ؛ فاحتلت لنفسها مواقع فى الجيزة وامبابة .

هذا الرجل هو محمد على باشا الذى استطاع أن يحكم البلد منتهزا فرصة الفوضى التى دبت فى البلاد وفرصة الشـــــجار بين المماليك على تقسيم الغنيمة ومستخدما عقله فى الايقاع بينهم وبين بعض ، وفرصة تأخر دفع المرتبات لمدة ستة أشـــهر ماضية ، وفرض البرديسى لضرائب جديدة لدفع المرتبات مما أثار سخط أهل القاهرة ، منتهزا كل هذه الفرص فحارب البرديسى وباقى المماليك وانتصر عليهم .

وقبض محمد على ، على زمام مصر .

واستطاع أن يقنع المماليك بترك الحرب والاقامة فى القاهرة حتى يكونوا تحت اشرافه ويأمن شرهم بعد أن آمنهم على أنفسهم .

لعبة القلعة :

ولكن هل آمن محمد على على المماليك حقا ؟

الحقيقة انه أعـــد لهم مصـــيرا عجيبا للتخلص منهم ببشاعة .

فقد دعا الى حفلة رائعة أعدت بمناسبة منح ابنه الأصغر الأمير طوسون لقب الباشوية من السلطان تأكيدا لرضاه عن محمد على وحكمه الذى دفع الجزية من المال

والرجال ، والمال معروف ، أما الرجال فهم هؤلاء الافراد المصريين الذين جندهم لحرب الوهابيين فى الجـــزيرة العربية لخروجهم على طاعة السلطان .

وأرسل السلطان التركى رئيس الخصيان بقصره الى مصر ليسلم طوسون براءة الباشوية وهدية من السلطان عبارة عن خنجر وسيف مرصعين .

ودعى محمد على أكابر القطر وأعيـــــانه والعساكر لحضور تشريفات البراءة ، وتقرر الباس الباشا الجديد ملابس اللقب يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١ ، وكان ضمن من دعى لشهود الاحتفال ، مماليك مصر .. ولبس كل منهم أفخر ما عنده من ثياب وركب أحسن ما يملك من خيل ، وتقلد المع ما عنده من سلاح .

وفى الساعة الثانية صعد المدعوون جميعا الى القلعة ، وكان الوالى يستقبل المماليك البكوات بمظاهر التعظيم والتكريم ، ويلاطفهم ، ويحادثهم فترة من الزمن يشربون فيها القهوة ثم ينصرفون من حضرته ، ويضرب النفير ايذانا بانصرافهم للانضمام للموكب .

كان ترتيب الموكب كالتالى :

فى المقدمة فرقة الأدلة بقيادة شخص يدعى أوزون على ، ثم الوالى ، ثم آغا (الرئيس) الانكشـــارية ، والمحتسب (وزير المالية) وخلفه عدد من الكبراء حسب ترتيبهم ، ثم الألبانيون بقيادة شخص يدعى صالح فوج وبعدهم المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب . وخلفهم المشاة والفرسان وأرباب المناصب .

وسار الموكب جهة ميـــــدان الرميلة فى طريق معوج منحوت فى الصخر حتى باب يسمى باب العزب اجتازته

مقدمة الموكب ، وعندئذ امر صالح فوج قائد الالبان باغلاق الباب الحديدى الكبير ، ثم اعطى اوامره لعساكره فتسلق الألبان على جانبى الطريق ، واخذوا مراكزهم لاطلاق النار .. وتحصنت المؤخرة ايضا .

ووصل المماليك الى الباب فوجدوه مغلقا ، وارادوا التقهقر ليصلوا الى الرحبة الوسطى من القلعة فلم يتمكنوا لان الخيول كانت تسير فى نظام خلف بعضها والممر ضيق حتى انها تحتك بجوانبه الصخرية .

وفتحت النار عليهم من الخلف والامام ، ومن أعلى ، واسقط فى ايدى المماليك ، وارتبكوا ، وسالت الدماء ، ونزع بعضهم ما كان عليه من فراء وثياب ثقيلة وترجلوا عن خيولهم ، وشهروا سيوفهم ، وقد تملكهم جنون الحنق والغيظ ، ثم اليأس فلم يكن امامهم خصوم يحاربونهم ، بل رصاص يهطل عليهم من أعلى الأسوار التى تحف بالطريق ، ومن النوافذ القريبة ، ومن الخلف ، وسقط شاهين بك الذى كان ضمن مقدمة موكب المماليك صريعا ، وقطعت راسه ، واخذها من قطعها واسرع بها الى الباشا ليأخذ البقشيش ، واستطاع سليمان بك البواب أن يصل الى باب الحريم وصرخ :

ـ انا فى عرض الحريم .

والعادة فى ذلك الوقت ان من استنجد بالحريم ينجد ، ولكن من الذى ينجده !

ووصل حوالى ثمانية من المماليك فى فرارهم الى مكان كان يقف طوسون باشا وسألاه النجدة ، ولكنه لم يلن لاستنجادهم .

وصارت القلعة فى ذلك اليوم ميدانا للقتل والذبح ،

وقعطت رءوس المماليك ليراها الباشا ، وسحبت أجسادهم بالحبال ، ولم يرحم أحد فى هذه المذبحة حتى الخدم وأولاد أهالى البلد وغيرهم ممن تزينوا بأحسن زينة ورافقوا مواكب المماليك بنوع من التفاخر .

ولم ينج من المذبحة غير مملوك واحد هو أمين بك الذى كان قد تأخر لظرف طارىء فلم يحلق غير الصف الأخير ، فلما سمع صرير الباب الحديدى وهو يغلق ، ودوى الرصاص رجع بجواده الى داخل القلعة ، وأخذ يبحث عن منفذ للهرب فلم يجد أمامه الا أسوارا ارتفاعها عشرون مترا فجرى بجواده الى قمة عالية ثم استفز الحصان فوثب به فى الهاوية التى تحت قدميه فتهشم الجواد ، وأصاب الرجل اغماء بسيط أفاق منه بسرعة وجرى من هناك حتى وصل الى اقليم الشرقية ومن هناك استطاع الهرب الى مدينة عكا .

رواية اسكندر ديماس :

وقد اثرت هذه المذبحة فى الكاتب الفرنسى الشهير الذى عرف بكتابة قصص الفروسية ، أسكندر ديماس الأب فألف كتابا سماه خمسة عشر يوما فى سيناء وصف فيه مذبحة المماليك ، وان غير فى بعض الوقائع ، اذ ذكر ان خمسة عشر مملوكا قفزوا من حالق فماتوا هم ودوابهم الا اثنان منهما نهضا من سقطتهما وهربا ، ثم وصف هروبهما الطويل والخمسة عشر يوما التى قضياها فى اجتياز صحراء سيناء .

ومهما يكن فان محمد على تخلص من المماليك نهائيا فقد بلغ عدد قادة المماليك الذين قتلوا فى مذبحة القلعة

اربعمائة وسبعون مملوكا ، وكان محمـــد على جالسا يرقب المذبحة ويدخن النارجيلة « الشيشة » فى مكان لا يراه فيه أحد ويرى منه هو كل شىء .

وبعد المذبحة خرجت جنـوده الى المدينة والى بيوت المماليك تنهب وتسلب وتقتل رجالهم وصبيانهم وتهتك اعراض نسائهم وتسلب حليهن ، ويقـال ان امراة احد المماليك كان بيديها أساور كثيرة فقطع الجندى التركى يديها بسيفه ليستخرج الأساور بسهولة .

زيادة الخير :

وانتهى المماليك واستتب الأمر فى مصر لمحمد على ودفع للباب العالى اى للسلطان من الأموال ما جعل محمد على يستحق لقب الباشوية وان يتقرر حكم مصر له والأسرته من بعده بالوراثة .. وكل شىء بثمنه .

ومحمد على ، وجدها لقمة سائغة سهلة ، فتحت يده بلد كبير ملىء بالخير والنـــاس والأموال فلا مانع من توسيع رقعة الأرض المملوكة ، وحارب محمـــد على بالمصريين فى كل مكان استطاع أن يحارب فيه .. فى السودان ، فى الحجاز ، فى المورة باليونان ، وهى الحرب التى غرق فيها الأسطول المصرى .

والمهم ان حياة وحكم محمـــد على قضيا فى حروب انتهت باستنزاف موارد المصرى المسكين حتى مات سنة ١٨٤٩ وخلفه حفيده عباس الأول .

وانكمشت البلاد ، واصابها الفقر .

الشيفاليه :

ثم جاء اسماعيل باشا الى الحكم خلفا لعمه سعيد باشا سنة ١٨٦٣ ، واسماعيل تربى فى القصور ، وتربية القصور الناعمة غير تربية جندى مرتزق كجده ، فالجندى المرتزق رجل ضاقت به اسباب الرزق كما حدث لمحمد على بعد أن افلس محل الدخان الذى كان يملكه فى بلدة قولة فلم يجد عملا يتعيش منه ولم يكن لديه شيئا يملكه غير شبابه فانضم الى الجيش .. أى جيش ، يعمل فيه ، فهو لم يحمل السلاح بنوع من الوطنية أو المبادىء ، انما هو عمل من الاعمال .

ولكن اسماعيل تربى فى القصور فهو ابن ابراهيم الابن الاكبر لمحمد على وقائد جيوشه الذى مات تاركا الولد لجده يدلله وينعمه ، وأصبح اسماعيل بطبعه يبحث عن الترفيه والترف ، واعتقد فى نفسه انه شيفاليه ، أى فارس من فرسان العصور الوسطى وهؤلاء الفرسان ليسوا فرسان حرب ، بل فرسان استعراضات على الواحد منهم أن يحب امرأة ذات أهمية خاصة ، يتفانى فى حبها ، ويضحى فى سبيلها بالغالى والرخيص .

وهذه المرأة كما يقول الكاتب هارولد نيكلسون فى كتابه « التصرف السليم » .

« تقضى تقاليد الفروسية ان لا تكون زوجة الرجل ، او احدى جواريه الخاضعات له ، فالزوجة لها وضع خاص فى رئاسة البيت وانجاب الخلف الصالح الذى سيرث عرش الفارس ، والجاريات وغيرهن نزوات عابرة تنفعن فى ساعات وأوقات اللهو والمرح » .

ولكن تلك المراة يجب أن تكون شيئا ممتازا لهـــا اعتبارها ووضعها ، وان تكون بعيدة المنال على الفارس لا يستطيع اخضاعها لسلطانه او التحكم فى مصيرها ، وتكون هى من جانبها قادرة على الصد وعلى المنح حسب هواها .. وعلى فارسها أن يقدم ما عنده من عطايا وأن يجثو عند قدميها ، ولا مانع من انزال الدمع امامهـــا فتمسحه له بمنديلها الخالد الذى يعد وقوعه فى يده دليلا على رضـــاها عنه واستسلامها له حتى ان ياجو الخائن سرق منديل ديدمونة وسلمه لزوجهـــا عطيل فقتلها معتقدا خيانتها له فى مسرحية شكسبير الشهيرة .

وهكذا بالنسبة لاسماعيل فان صاحبة المنديل كان لابد أن تكون ذات اهمية خاصة .. واختار اسماعيل أوجينى امبراطورة فرنسا .. ولـكى يدعو الامبراطورة لزيارته فى مصر صنع حضارة هامة تتلاءم مع اهمية شخصيتها ، وكانت المناسبة التى ستحضر فيهـــا هى افتتاح قناة السويس ، واقامة أول خط سكك حديدية مصرية من الاسماعيلية الى القـــاهرة ، وانشاء دار للأوبرا تتفرج فيها الامبراطورة وكلف ملحنـــا ايطاليا مشهورا بتلحين أوبرا جديدة خصيصا لهذا الافتتاح هى أوبرا عايدة التى كتب مادتها التـــاريخية مريت بك المؤرخ ومؤسس المتحف المصرى والـذى لا يزال يوجد شارع باسمه فى القاهرة ، ومن هذه المادة التاريخية الف كامى دى لوكلى المسرحية .

عايدة :

وتدور وقائع أوبرا عايدة حول القائد راداميس الذى

يحب عايـدة الحبشية التي اختطفت وبيعت لتعمـل وصيفة لبنت فرعون الأميرة امزيس التى تحب بدورها القائد راداميس وهاجم الأحبـاش مصر بجيش ضخم يقوده الملك عمو ناصر ملك الحبش شخصيا ، ووقعت عايدة بين نارين ، فهى ابنة الملك عمو ناصر وتدعو الله أن ينصره على القائد الذى أحبها واحبته، ولكن راداميس ينتصر ويأسر أباها ويحضره الى منفيس ، وأقيمت حفلة أستقبال للقائد ، وفى الحفل صاح الناس طالبين قتل الأسرى ، ولكن القائد طلب من الفرعون العفو عنهم ، وعفا الفرعون عنهم على أن يبقى ملك الأحباش وابنته رهائن حتى لا يعاود الأحباش الحرب ، ووافق فرعون الذى أعلن خطبة باراداميس لابنته مع تعيينه وليـا للعهد .

وذهبت عايدة الى المعبد كما ذهب والداها وحرضها على معرفة الطريق الذى سيسلكه الجيش المصرى من حبيبها القائد ليقابله الأحباش ، وحضر القائد الذى كان يريد أن يهرب مع عايدة الى حيث يتمتعان بحبهما ، فهو لا يريد أن يتزوج ابنة الفرعون الأميرة امزيس التى ظهرت فى هذه اللحظة ومعها الكاهن ورئيس الحـرس وامسكوا بالقائد لخيانته .

وحضر الفرعون وحكم على باراداميس بالدفن حيا ، وأعدت له حجرة تحت الأرض ودفن بها واغلقت عليه بالأحجار .

وفى القبر ظهرت عايدة التى كانت قد غافلت الكهنة ونزلت الى القبر لتموت مع حبيبها .

وانتهت الأوبرا بباراداميس يحتضن حبيبته عـايدة وسط الظلام .

وهكذا فان اسماعيل باشا الذى تخيل نفسه فارسا من شيفاليهات العصور الوسطى قد نجح فى علاقته بالأمبراطورة أوجينى التى ظلت محافظة على العهد حتى بعد أن زال عنها وعنه العرش فهى تزور أسرته مرة كل عام لتجتر الذكريات كما جاء فى مذكرات الاميرة جويدان .

النقطة السوداء :

والمهم ان مشاريع اسماعيل كثرت وزادت ففرقت البلاد فى الديون ، وفى نفس الوقت خافت الأسرة منه فاستطاعت أن تعزله عن العرش وتعين توفيق بدلا منه .

وتوفيق فى تاريخنا نقطة سوداء ، فانه يبدو ان الأسرة التى عزلت اسماعيل النشيط رات أن تعين أضعف امرائها شوكة خديويا جاهلا لا يدرك مجرى الأمور فحين طالب الضباط المصريون مساواتهم فى المرتب بالضباط الأتراك فى الجيش تصرف معهم بطريقة ادت الى قيام الضباط المصريين بثورة ضده بقيادة عرابى .. وهو بدلا من ارضاء الثائرين قرر اغلاق المدارس التى تسببت فى تعليم الناس ان لهم حقوقا ، كما اغلق المصانع التى ادت الى وجود تجمعات عمالية ثم ...

ثم كانت الجريمة حين استنجد بالجيش الانجليزى ليضرب المصريين ويحتل مصر .

زوج جويدان :

وفى سنة ١٨٩٢ توفى توفيق واستدعى ابنه الخديوى عباس حلمى الثانى آخر الخديويين المصريين فقد أبطل اللقب من بعده وسمى من حكموا بالملوك .

كان عباس فى الثامنة عشرة يدرس فى كلية «الترزينوم» بالنمسا وهى كلية مخصصة لأبناء الملوك والأمراء .

وبدأ عباس حكمه بمسرحية ، فطلب من رئيس الوزراء مصطفى فهمى الذى اشتهر بانه صنيعة الانجليز ان يقدم استقالته بسبب سوء صحته ،ولم يستسلم رئيس الوزراء ، بل طلب من الخديوى استشارة اللورد كرومر ، وكان كرومر هو المعتمد البريطانى فى مصر ، والحاكم الانجليزى الفعلى لها ، فما كان من الخديوى الا ان اصدر قرارا باقالة الوزارة لاعتلال صحة رئيس الوزراء ، وعين بدلا منه حسين فخرى باشا .

وقابل المصريون هذا التغيير بفرحة وأمل .

ولكن كرومر لم يستسلم له وهدد عباس ، وانتهى الأمر بتعيين وزارة جديدة ورئيس وزراء جديد هو رياض باشا ، وارسل الخديوى خطابا الى اللورد يستسمحه ويعلنه انه سيأخذ بنصائحه فى المستقبل .

كانت المسرحية الثانية هى حين سافر الى الصعيد فى رحلة عسكرية للتفتيش على الجيش وفى ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ وعند حدود السودان فى بلدة حلفا استعرض فرقة عسكرية مصرية بقيادة ضباط انجليز فابدى انتقادات اغضبتهم وادت الى ان اللورد كتشنر سردار الجيش

(أمين سر) فى ذلك الوقت قدم استقالته ، فاضطر الخديوى الى الاعتذار له رسميا .

على ان أهم حادث فى عهده هو حادثة دنشواى .

وفى ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ كان بعض الضباط الانجليز يصطادون الحمام فى بلدة دنشواى ، وهى بلدة تابعة لمحافظة المنوفية واسمها الآن « الشهداء » .. وقد أصابت رصاصة من رصاص الانجليز حطبا فى جرن فأوقدت فيه النار وجرحت امرأة تصدت لهم فهاجمهم الأهالى ودارت معركة بالطوب ضد الانجليز .. وأصيب بعض الضباط وجرى أحدهم لمسافة كيلو مترات سقط بعدها ميتا ، وثار الانجليز وأجريت محاكمة فى شبين الكوم وحكم بالاعدام على أربعة كما حكم على آخرين بأحكام مقيدة للحرية مختلفة بين الاشغال والسجن وحكم على البعض بالجلد .. وشنق الأربعة فى نفس بلدتهم دنشواى أمام أهلهم وأقاربهم .

وكان عباس معتادا على السفر الى الآستانة فى تركيا لقضاء الصيف هناك ، وفى صيف سنة ١٩١٤ وهو فى مصيفه هذا أطلق عليه شاب مصرى الرصاص فأصيب بجروح وقتل الحرس الشاب المصرى ، فلم يعرف الدافع للجريمة .

وفى نفس السنة قامت الحرب العالمية الأولى ، وما دام الرجل لم يمت بالرصاص فليخلع عن العرش ، وهكذا خلعه الانجليز من منصبه ومنع من العودة الى مصر وعين بدلا منه السلطان حسين كامل أكبر أمراء أسرة محمد على سنا .

وجويدان زوجة هذا الخديوى كما نرى من مذكراتها

التى كتبتها تريد ان ترينا انها امراة طيبة خيرة متدينة ، وان زوجها ايضا يتميز بهذه الصفات ، ولكن القلم يفلت منها فى بعض الحالات فتظهر الرجل على حقيقته ، جاهل محب للمال ، فهو كرجل جاهل يعتقد ان قراءة الكتب مضيعة للوقت ، وهو حين يراها تقرأ فى كتاب يسألها :

ـ ما هذا الحمار ؟

ثم هى تحدثنا عن عقلية زوجها التجارية التى جعلته يهتم بالتجارة والمال وتنمية الثروة أكثر من أى شىء آخر .. والحق ان عباس كان ناجحا فى هذا المجال فانه عندما تأكد انه لن يعود الى مصر تنازل للملك فؤاد عن العرش مقابل ثلاثين الف جنيه كراتب سنوى ، كما انه لما مات فى جنيف يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٤ قدرت ثروته رسميا بحوالى سبعة ملايين من الجنيهات .

والقارىء لمذكرات جويدان يلاحظ انها تجاهلت الأحداث السياسية ، ربما لأنها حين كتبت مذكراتها خافت من ان تقحم فى الاعيب السياسة .

سعد رضوان

الأميرة تصف الأفراح والحفلات المصرية

قالت الأميرة جويدان فى وصف الأفراح والاستقبالات المصرية :

« لا توجد أمة فى العالم تتفنن فى اقامة أفراحها كلها كما يفعل المصريون ، فانهم لا يدخرون شيئا من أسباب السرور والانشراح الا أدخلوه فى أفراحهم مهما كلفهم هذا ، وليس ذلك مقصورا على الأغنياء والموسرين منهم فقط ، بل العائلات المتوسطة والفقيرة أيضا تنفق على الأفراح نفقات تربو كثيرا على ما تسمح به ثرواتها ، وكثيرا ما يكون الزواج سببا فى افلاس بعض العائلات وضياع مالها ، وأكثر النفقات تكون فى ليلة الخطبة فى بيت الزوجة ، وليلة الزفاف فى بيت الزوج ، ثم وصفت حفلة زفاف ، ودهشت كثيرا لتنوع أسباب اللهو والهدايا الغالية .

وصف حفلة زفاف

كانت العروس ابنة لأحد الباشوات ، تتجاوز سنها الثالثة عشرة ، وكانت مصابة بالتهاب رئوى شديد ، ولكن الطبيب قرر انه لا خطر هناك يستدعى تأخير موعد

الزفاف ، فضلاً عن أن التأخير في ذاته يكبد خسارة كبيرة ، اذ تستدعى فى ليلة الزفاف عدة أجواق تمثيلية ومطربون وراقصات وغير ذلك ، أضف الى هذا أن المصريين جميعا يتشاءمون من تأخير الزفاف عن موعده .

كانت أسباب السرور بالغة حدا لا يتصوره العقل ، فالمصرى فى اقامة افراحه يأبى ان يستمع لصوت العقل، ويتبختر تفكيره تحت أشعة الشمس الحارة ، ويستسلم للأمل (ان شاء الله) فربما انتج القطن محصولا جيدا يعوض عليه كل هذه النفقات ، ومصر بلد العجائب ، فكل شيء فيه جائز .

عند الساعة الثامنة مساء نبهتنى وصيفتى فى سراى (مسترد) الى أن الوقت قد حان لارتداء ملابسى والذهاب الى الحفلة ، فلم أر بدا من أن اتبعها الى غرفة الزينة ، واستسلمت الأيدى الوصيفات الكثيرات حتى تمت زينتى ، وبعد أن ثبت (اليشمك) فى (الهرطوس) بطريقة لطيفة ، ركبت العربة الى حفلة الزفاف ، وفى الطريق جعلت افكر فى هذه العروس الطفلة !!

ترى هل ستكون سعيدة ؟ لأنها لا تزال طفلة وخطيبها لم يزل فتى صغيرا ، فهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وقد كان رفيق طفولتها وطالما لعبا معا ، فلما أراد الحجاب أن يفرق بينهما جمعهما الزواج ، وأصبح رفيق الطفولة رفيقا للحياة ، وهذه الحالة نادرة فى مصر ، ففالبا لا تعرف العروس عن خطيبها شيئا ولا تراه الا خلسة من وراء ستار نافذة مشبكة بالحديد ، فيا ترى أى عاطفة تجيش فى صدر الفتاة نحو

ذلك الغريب الذى سيصبح زوجها ، انه سينقلها من دور الفتاة الى دور الزوجة ، ولكن هذا هو كل شىء ، فالجو الذى سيحيط بها لن يتغير عن الجو الذى أحاط بها فى بيت أبويها ، فالنوافذ مغلقة والأبواب موصدة والأغوات على الأبواب والجوارى يقمن على الخدمة ، وغاية ما هناك تبدلت وجوه الخـــــدم ، فهل تستطيع الفتاة أن تحب مثل هذا الزوج ؟ ولنفرض انها تريد أن تحبه ، فهل تستطيع أن تنفذ هذا العزم ؟ وهل الحب سلعة تؤخذ بالمساومة ؟ أليس الحب قوة قاهرة لا تستطيع النفوس صده ، فهل ضعف الحب حتى أنه لا يستطيع كسر هذا الأغلال ، أم اصبح الناس لا يستحقون نعمة الحب ؟

تدفقت الأنوار الى داخل العربة ، وصدحت الموسيقى ، واصطف النـــاس ، وتمهلت الخيل فى سيرها ليتسنى للقوم ذبح الذبائح أمام العربة اكراما لى ، وأخيرا وقفنا أمام باب الحريم ، حيث استقبلنى عدد كبير من النساء والجوارى ، فنزعت قناعى ومعطفى ، وقدمت الى مرآة مرصعة بالجواهر لأتفقد زينتى ، واستقبلتنى على رأس السلم أم العروس وأم العريس (وداد هانم) وهذه الأخيرة تعتبر فردا من أفراد العائلة ولها المقام الثانى بعد الأم .

ولم أستطع ــ رغم محاولاتى ــ منع النساء من تقبيل ثوبى ، وسرت بين مظـــــاهر الترحيب والسلام الى الصالون الذى أعدوا لى فيه مقعدا كبيرا مغطى بالكشمير ، وجلست باقى السيدات على وسائد من حرير .

القهـوة

ثم جاءت القهوة تحملها (قهوجى كلفا) على صينية مستديرة وجعلت تصبها فى فناجين اطباقها مرصعة ، وفى فنجان تحمله جارية الى الهـــوانم وهى خافضة الرأس ، ثم اتجهت كل الأنظار لى ، لأن التقاليـــد تقضى بأن أكون أولى البادئات بشرب القهوة وهن من بعدى .

وبعد الانتهاء من شرب القهوة الأولى ـ أقول الأولى لأنه سيعقبها قهوات ، فمن عادة المصريين انهم يديرون القهوة على الجميع كلما جاء ضيف جديد ـ طلبت رؤية العروس .

العروس

أرادوا احضار العروس الى ، ولكنى رفضت وأبيت الا أن أذهب اليها بنفسى اكراما ليومهـــا السعيد ، فوجدتها جالسة على مقعد عال فى صـــالون خاص ، فكانت كالتمثال المعـــروض ، ولما رأتنى مشت الى ، فتأثرت لمنظرها ، واحتضنتها بين ذراعى ، ثم أخذت بيدها الى مقعدها ، فاننى أعرف انها مريضة لا تستطيع الوقوف رغم ما تبديه من جلد فى مغالبة الآلامها واخفاء ما تشـــعر به وهى تبتسم لجيش النساء الذى يمر أمامها ، وكل واحدة تدعو الله أن يقيهـــا شر العين والحسد ، وتختلس النظرات الى المجوهرات تحاول أن تقدر ثمنها .

كانت العروس ترتدى ثوبا من الأطلس موشى بالذهب

وعلى رأسها تاج مرصع بالجواهر يتدلى من تحته نقاب يشمل كل جسمها ، وفى هذا النقاب أربعة أحجار كريمة عند الجبهة والذقن والخدين ، وفى اذنيها قرطان من البرلنت ، وفى جيدها ويديها عقود واساور لا عـــدد لهـــا .

كانت الدادة تنتهز فرصة خلو الغـرفة من الزائرين لتقدم الى ربيبتها شيئا من المرطبات لتجديد قواها ، فشعرت بدمعة تترقرق فى عينى رثاء لتلك الفتاة ، وحولت وجهى عنها وانا اغالب نفسى كى لا تسبقنى الدموع ، اذ لا يجوز أن أبكى وبخاصة فى هذا الموقف ، وكان الدموع عرفت حرج مركزى فأجابت ندائى وامتنعت .

ثم شاهدت الهدايا المقدمة للعروس ، والى جانبهـــا الهدايا المقـــــدمة الى الدادة ، وهى هدايا من انفس ما رأيت ، وكانت معروضة فى غرفة خاصة ، فيهـــا سرير العرس ، وهو سرير فاخر ، قوائمه الأربع مرصعة بالأحجار الكريمة ، ولكن هذا السرير لا يستعمل الا ليلة العرس ، ثم يحفظ بعد ذلك كتذكار جميل لتلك الليلة السعيدة .

انتقلنا بعد ذلك الى الشرفات والنوافذ لنشرف على الألعاب الرياضية التى تجرى فى السلاملك ، فجلست فى شرفة على مقعد وثير يحيط بى سرب من الهوانم ينظرن الى اى اشارة من يدى ليقدمن لى السجاير ، ولا أكاد أشير برأسى حتى أجد أنواع المرطبات أمامى ، وكان كل هذا يجرى بلطف وكرم لا تكلف فيه ، فالكرم عند الشرقيين ليس ظاهرة متكلفة ، وانما هو شعور داخلى فياض ، حتى أن الضيف يشعر بأنه فرد من أفراد العائلة .

زفة العروس

أعلنت ربة البيت بأن الزفة ستبدأ ، وهرعت السيدات الى غرفة الاستقبال ، ووقفن صفين ، وحملت الجوارى الى الهوانم أكياس الذهب ، ثم فتح الصالون ووقفت العروس على بابه برهة ، ثم بدأت تسير بخطوات صغيرة ، وقد تدلت من التاج الذى على راسها خيوط طويلة من الذهب ، وسارت الدادة وبعض الجوارى أمام العروس يدعون لها بالوقاية من العين والحسد ، وكلما تقدمت انحنت لها السيدات ، وألقين الذهب والزهور تحت قدميها ، وكل سيدة تحاول أن تأخذ خيطا من الخيوط الذهبية ، لأنهن يعتقدن أن هذا يجلب الحظ ، وبعد أن أتمت العروس طوافها عادت الى الصالون وجاءت الراقصات .

الراقصات

كانت أجسام الراقصات تقريبا عارية ، وجعلن يتثنين ويتلوين على نغمات الموسيقى ، ثم يقتربن برءوسهن من الزائرات وينظرن اليهن بتوسل ، فكانت الهوانم يلصقن الذهب فى وجوه الراقصات ، فلما لم يعد فى وجوههن مكان خال أخذت قبضات الذهب تتناثر عليهن وهن يلتقطنه بين صيحات الفرح والسرور ، وبعد ذلك عدنا الى الشرفات لنرى ما يجرى فى السلاملك .

زفة العروس

وبعد أن فرغنا من تناول العشاء وشرب القهوة ،

طلبت ربة البيت من السيدات السماح للعريس بالحضور بنفسه لشكرهن على التنازل بالتشريف ، وطبعا أجابت السيدات الطلب بادب واخذت كل منهن تصلح زينتها وتتفقد ملابسها ، ثم وقفن صفين فى انتظار العريس .

وقف العريس فى الباب مبهوتا ، وقد اخذه بريق الجواهر والالاة الوجوه التى تنظر اليه ثم انحنى حتى كاد يلمس الأرض ، وكان فى انحنائه يشعر بانه يقدر الجمال الذى يراه ، ويشكر السيدات على سماحهن له برؤية وجوههن سافرة ، واخذ ينتقل من وجه الى وجه كانه يريد أن يشبع النظر من تلك الوجوه ، ثم اخذته أمه من يده وقادته الى مكانى ، حيث قدم لى القهوة بيد ترتعش ، ولما انتهيت من شربها انحنى مرة اخرى وغادر الصالة .

اغرب هدية

وفى هذه الليلة وقع ما ادهشنى وعقد لسانى ، ولأول مرة فى حياتى اغلق على فلم أعرف ماذا أصنع !!

انحنت أمامى زوجة أحد الوزراء وقالت : « يا صاحبة السمو ، لقد عجزت عن اختيار هدية تعجب سموكم ، فعندكم كل ما تشتهى الأنفس ، وليس لى الا ان اقدم لكم أعز شىء عندى » ويظهر ان السيدات كن يعرفن هذه الهدية النفيسة ، لأنهن كن يتبادلن النظرات !!

ذهبت الهانم وعادت تقود طفلا صغيرا فى يدها ، يبلغ من العمر خمس سنوات ... انه طفلها .. ومع ذلك فهى تقدمه هدية الى .. !! ولأول مرة فى حياتى لم

اعرف ماذا اصنع .. وجمدت فى مكانى ، وتقدم الطفل حتى أخذ مكانه عند قدمى .. ولكى انقذ موقفى اخذت الطفل بين يدى ، واستعضت عن الكلمة بالقبلات .. ولكن موقفى ما زال حرجا ، فانى اشعر بانه يجب ان افعل شيئا او اقول كلمة ، ولكن المفاجأة عقـــدت لسانى ، فخاننى الـكلام .. ومن ذا الذى يتصور أن الاطفـال تدخل فى باب الهدايا .. وما عسى أن يكون شعورى نحو هذا الطفل .. لقد اصبح الآن طفلى .. ولكن هـذا جنون ... لماذا أهدتنى هذه السيدة طفلها ؟؟ انهـــا لا تعرفنى ولا تعرف عن نفسى شيئا .. انها لا تعرف الا اننى زوجة الخديوى ، ولهذا اهدتنى طفلها .. اذن فالطفل لم يهد الى أنا .. وانمـــا اهدى الى زوجة الخديوى .

لم يستغرق هذا التفكير اكثر من بضع ثوان .. رفعت بعـــدها راسى الى السيدة وابتسمت .. ثم اجلست الطفل جانبا .. وعانقتها .. فالانسان قد تخونه الألفاظ احيانا .

ولما علم الخديوى بمجمل القصة امتعض فى نفسه ، واصبح الطفل حملا ثقيلا علينا ، ولم ندر كيف نخلص من هذا الموقف ، الى أن انقذ الطفل نفسه ، فانه بعد ثلاثة أيام امتنع عن الطعام واكثر من البكاء ، طالبـا أمه التى تخلت عنه لغرض فى نفسها .. فأعدته الى أمه ومعه عربتان محملتان بالهدايا .

أثناء الحرب بين تركيا وبلغاريا
كيف كانت الحياة في سراي المنتزه ؟

منذ بضعة أيام أرسل الخـــديوى يخته الخصوصي (المحروسة) الى قولة ، وأمر الربان أن يحضر معه كل من يستطيع احضاره من الهـــــاربين بدون تفرقة فى الجنسية أو الدين ، وأعدت سراى رأس التين مأوى لهؤلاء الهاربين ، فكنا نسافر صباح كل يوم من سراى المنتزة الى سراى رأس التين حتى نبدأ العمل على الفور فى تهيئة الغرف الخـــالية فى السراى لتكون مأوى للهاربين .. قسم منها للرجال وقسم للنساء .

دبب الحياة فى الصالات التى ظلت مقفلة مدة طويلة ، فاقيمت فيها مئات الأسرة والمراتب حتى أصبحت شبيهة بالملاجىء .. وأعدت بعض الغرف للأطفال .. وكذلك أعدت بعض الموائد فى منعـــزل لغسل ملابس الرضع وتغذيتهم .. وكان يصل الى السراى كل يوم عدد وفير من الصناديق من تجار مصر والاسكندرية الذين أرادوا الاشتراك مع الخديوى فى ايواء هؤلاء المساكين ،وكانت الصناديق تحتوى على مواد غذائية وأقمشـــة وملابس واحذية وشرابات ودخان وسجاير وغير ذلك ، وكانت هذه الصـــــناديق تفرز ويوضع كل شىء فى القسم المخصص له .

وكان الخديوى لا يمل العمل ولا يناله التعب ، فكان يشرف على كل شيء بنفسه ، وكان الانسان يرى طربوشه الأحمر فى كل مكان ، وكان اذا راى الفراشين يتباطأون فى فتح صندوق أخذ الكماشة منهم وسحب المسامير وأزاح الغطاء ، وكان ماهرا جدا فى هذه الأعمال ، حتى اننى أهديته صندوقا به مختلف الآلات الصغيرة مصنوعة من الفضة ، واظن انه ما زال يستعمل هذه الآلات الى الآن .

وكانت هذه الأعمال لا تعوق الخديوى عن المقابلات ، فاذا حضر أحد لمقابلته ، أسرع (التشريفاتية) يبحثون عن سيدهم فى غرف القصر الكثيرة ، فاذا ما ظفر به أحدهم بعد جهد ، كان منظر الخديوى وملابسه لا يسمحان بالمقابلة ، فيسرع الخديوى الى غرفته الخاصة ، لدرجة أن (التشريفاتى) لا يستطيع اللحاق به ، وهناك يعد له خادمه الانجليزى (فريدريك) ما تيسر من الملابس للمقابلة .

وعند الظهر نتناول الغداء على خوان صغير مستدير ، وضع لنا حيث نريد ، وكنت أرتدى معطفا من الكريب دى شين فوق ملابسى ، وأغطى رأسى بقناع خفيف ، ففى هذه الملابس كنت أستطيع الظهور أمام الرجال ، ويقوم على خدمتنا بربرى واحد .

وما كان أشهى الغداء معه ، ولم أر انسانا يجيد (تقشير) البرتقال مثله ، ونتحدث عن أشياء كثيرة ، وكان ينقصنى فى قسم الاطفال اللبن وزجاجات اللبن والبودرة ، ولو اننى ذكرت مائة شيء لما نسيت ذاكرته الحادة شيئا منها . فاذا مضت مدة لم نتقابل فيها ثم رأيته بعد ذلك ، كنت أدهش لمنظر وجهه .. انه وجه

جميل ، تنبعث من عينيه الرماديتين نظرة حادة ، وكان حاجباه يشعران بالشك ، ولكن كم كان يتغير هـــذا الوجه عندما يبتسم ، فانه يصبح جذابا . ولم أر مثل هذه الجاذبية فى وجه غير وجهه ، وكان فمه أجمل شىء فيه ، فانه كان يشبه فم الأطفال ، وعندما كنت اقول له ذلك كان يضحك كالأطفال ، ثم يقول لى (يا طفلتى) ثم يعقب هذا مداعبا بقوله : « يا عروستى الصغيرة » وفى الواقع كنا نلعب كالأطفال ، فكنا نلعب كثيرا مع الكلاب التى كنا نحبها على السواء ، وكنا نتسابق فى الغرف والممرات ، ويجرى الواحد اثر الآخر ، وكنا أحيانا نشرب القهوة بصوت عال جدا كما لو كنا من العامة او نلفظ نواة تمر الكريز من الفم لنرى أينا يستطيع قذفها ابعد من الآخر ، ولا ضرر فى ذلك فانها كانت تقع فى حديقتنا. وغاية ما هناك كان الحراس يندهشون ، بالاختصار كنا نحب بعضنا .

على اننى هنا لا اريد أن اكتب عن الحب وانما اكتب عن البغضاء . عن الحرب . عن التشريد . عن الجوع .. ترى كم سيكون عدد الهاربين الذين ستنقلهم المحروسة ؟ والآخرون المتخلفون فى قولة ، ما هو حالهم ؟

عندما أهدت القيصرة « أوجينا » يخت المحروسة الى اسماعيل باشا جد عباس حلمى لم تكن تفكر فى ان هذا اليخت سينقل جماعة من الهاربين . وان أقـدامهم الحافية ستدوس على فراشه الفاخر ، ولطالما أقلنـا هذا اليخت فى رحلات جميلة .

وبعد الغداء يبدأ العمل من جديد ، وكان على أن ارتب ملابس الأطفال ، تســاعدنى فى ذلك وصيفتى (هرملين) ومدربتى على الألعاب الرياضية (مايسكى)

فكنا الثلاثة نقوم بعمـــــل شاق . وكانت (مايسكى) تشجعنى على الاستمرار فى العمل بقولها « ان هـــذا الاجهاد مفيد يا صـــاحبة السمو فانه يحفظ للجسم رشاقته » ولكنى بالرغم من هـــذا الاغراء كنت اشعر بالسرور عندما يدعوننى لتناول (دندرمة العصر) مـــع الخديوى ، وكان يحب الدندرمة التركية ، وهى المخلوطة بالقشطة . وفى هذه الاثناء ورد تلغراف بأن المحروسة ستعود حاملة الفى هارب مسكين فشعرت بخجلى أمام نفسى لأنى كنت أتنـــاول الدندرمة الشهية وهؤلاء حط عليهم البؤس .

وفى المساء اثناء عودتنا الى سراى المنتزة كنت أفكر طول الطريق فى هؤلاء الهاربين ، ولما استلقيت فى فراشى وأسدلت (هرملين) النـــاموسية لتحمى جسمى من عضات البعوض شعرت ببغضاء نحو نفسى .

***

أمس وصلت المحروسة .. هل كان ذلك أمس ؟ هل تستطيع العين ان ترى هذا البؤس الكبير فى مثل هذا الوقت القصير ؟ وقفنا على سلم راس التين ننظر الى البحر وقد نشرت صفحته تحت أشعة الشمس . وظهرت فى الأفق سفينة تجرى .. المحروسة .. وبالرغم من بعد المسافة فقد كانت أصـــــوات الركاب تصل الى آذاننا ، وكأنما كانت الســـفينة تحمل بـكاء ودموعا . واقتربت السفينة ووضحت الاصوات . والف البؤس بين مئات الأنفس . فأرسلت موجة مظلمة من صيحات الألم تشق طريقها بين أمواج البحر الى قلوب من يواسيهم ويشفق عليهم فشعرت بانقباض فى قلبى ، وكأنما كانت تسيل منه الدموع ، فمددت يدى لأمسك بيد الخديوى

، قلت له « هيا بنا نساعدهم » ولكنى لم أجد الخديوى الى جانبى . اذ كان قد ذهب .. وكنت فى مكانى وحيدة .

اشباح تدثرت فى خرق بالية ، وقد فاحت رائحتهـا وهى تتدفق من السفينة الى سلم رأس التين فكانوا اشد الناس شبها بالبشر ، فان ظلم الانسانية سلبهم حقهم فى الحياة ، وجعل منهم مشردين بؤساء مخبولين . لا مأوى ولا أمل . فلم أتمالك نفسى من صب اللعنة على من كان السبب فى بؤس هؤلاء وامتلأت السراى الهادئة ــ التى أعدت لواحة حاكم البلاد ــ بأصوات البؤس والبؤساء !!

وقفت فى انصالة وامتدت أيدى النساء الى خرق بالية قذرة لففن فيها أطفالهن الجياع . فأى ذنب جناه هذا الطفل المسكين حتى يجوع ويعذب ؟ اى فائدة تعود على هؤلاء الوحوش البشرية من قتل الأطفال ؟ ما أبعد الانسانية عن الشعور !!

كنت اخرج الأطفـال من اللفافات القذرة ، وقـد نال منهم الاهمال حتى أصبحوا لا يزيدون عن انهم كومة من لحم تدب فيها روح ، وكانت الأمهات قد حملنهم أسابيع وشهورا يهربن من مكان الى مكان والخوف يطاردهن ، حتى عندما آوتهن السفينة كان الخوف لا يزال مستحوذا عليهن فابين مفارقة أطفالهن لحظة ، ولما وصلن الى رأس التين كن لا يصدقن انهن قد نجون ، فكانت كل امراة تتلمس طفلها وتضمه الى صدرها لتتأكد من وجوده معها، وكثيرا ما سلمنى النساء مع أطفالهن بعض المسـدسات والخناجر ، ولعلهن كن قد أعددنها للدفاع عن اطفالهن ، فما افظع الأيام التى تقضى على المرء أن يقتل نفسا للدفاع عن أخرى ، وقد جنت امراتان كانت قد مضت عليهما

مدة وهما تتهربان من مكان الى مكان والخوف يملأ قلبيهما ، فلما اطمأنتا الى مكان واستراحتا من الهرب تجسمت فى مخيلتهما الحوادث الماضية بشكل أشد وأروع فطار عقلاهما شعاعا .

لم تكن مساعدة هؤلاء سهلة كما قد يتصور الانسان ، ولو انهم استطاعوا قراءة قلبى لكان من السهل التغلب على الصعوبات ، وكانوا يعانون صعوبات كبيرة فى ادخال هؤلاء الى الحمام ، وكنت قد عهدت بالحمامات الى احسن خادماتى ، وهن بولونيات من مدينة «أونيول» القريبة من الآستانة ، ولهذا كن يجدن اللغة التركية ، ولكن النساء لما علمن انهم غير مسلمات خشين منهن شرا وأبين الاستسلام اليهن فى نزع الملابس والاستحمام ، مع انهن كن من الضعف بحيث لا تستطيع احداهن ان تحرك يدها وكان لابد أن يفتسلن لازالة ما علق بهن من الأوساخ ، وتغيير ملابسهن البالية القذرة بأخرى نظيفة لكى يستطعن الراحة ، فذهبت اليهن ، وكن يعرفن انى هانم أفندى ، ويأتمننى على أطفالهن ، فقلت لهن مهدئة (الخادمات مسلمات لأنهن يؤمن بالله) وبذلك استطاعت الخادمات مزاولة العمل ، وأما الملابس القديمة فكانت تحرق على الفور ، وكان العمل كثيرا ومستمرا كدولاب لا يقف ، على انه لم يكن قسمنا هو الوحيد الذى يعمل، بل ان أكثر العمل كان على عاتق رئيس الاطباء الدكتور (كاوتسكى بك) فانه ومن معه كانوا يفحصون كل واحد من الهاربين فحصا جيدا ، فكان منهم المرضى والجرحى وبعض النساء كن هاربات بحروق شديدة ، فما أشد بؤس هؤلاء المساكين الذين ذاقوا كل ويلات الحرب القاسية .

أما الخديوى فكان يعمل فى قسم الرجال ، وكان يأتى ليرانى بين الحين والحين ، فكان منظرى وانا احمل طفلا بين يدى غريبا عليه ، لأنه لم يألف ذلك منى ، وكان قلبه يخفق لرؤية الأطفال على العموم . واذكر اننا كنا فى رحلة ، فلما وقف القطار الخاص فى احدى المحطات . هتف مئات من الأطفال .. اصطفوا فى المحطة (أفندى مزجوق يشا) وقد أثر صوت الأطفال على الخديوى لدرجة انه لم يستطع ان يحدث مستقبليه . نعم أنا أعلم أن لى قلبا رقيقا .. وفى المساء كنا نستقل القطـــار الى سراى المنتزه بعد أن أدى كل منا عمـــلا مشكورا .

***

لا يزال العمل مستمرا فى راس التين سائرا من تلقاء نفسه ، وبدا يزول عن الوجه ذلك الأثر الذى رايته فى نفوس الهاربين فى اليوم الأول ، وهو الذى محـــا الشخصية الفردية والف بين قلوب الجميع فجعل منها كتلة واحـدة متضامنة ، ولـــكنهم ما كادوا يحتـكون بالحياة مرة أخرى حتى اختلفت مشـــاربهم وعاداتهم ، وبدأت العائلات « الراقية » تفصل نفسها عن العائلات « الدنيا » فليت شعرى متى تزول هذه الفوارق ؟ الا يفكر الانسان فى التنازل عن تلك الفوارق الا اذا حلت به المحن وطحنه البؤس ؟ أليس الناس كلهم سواء ؟ أم تراهم لا يشعرون بذلك الا عندما تمتد اليهم يد الموت ؟ الا تجمع الأمومة بين كل الأمهات فيحببن جميع الأطفال كما يحببن أطفالهن ؟ أم اصبح الشعور وقفا على من اتصل بنا بالاسم أو بالقرابة ؟ واها للشعور اذا كانت حدوده « أنا » و « نحن » واذا كان منتهى ما يصل اليه هو تجزىء

القوة العامة وتحويلها الى ملكية فردية . الا يحمل هذا التجزىء عقاب الانسانية بين طياته ؟ اليس هو السبب فى تناكر النـــاس وموقف بعضهم من البعض موقف الغريب ؟ وشعور الفردية هذا بين الناس يجعلهم ينفصلون الواحد عن الآخر .. وهنا تبدأ العداوة .

اذا كانت قيمة ما يفعله المرء لا تظهر الا اذا اختص بها أناس دون آخرين ، فليست هذه الأعمال الا أنانية من الانسان وشعورا كاذبا لا يصل أثره الى أبعد مما يصل الانسان نفسه .. الا توجد وسيلة تجرد الانسان من هذه القيود الخيالية غير الخوف أو الموت ؟ ما أغرب مكان فى هذا القصر ؟ ماذا أبتغى فيه ؟ ان المساعدات التى أقوم بها لهؤلاء المساكين ما كنت لأقـــدر عليها لولا مركزى الخاص ونفوذى وقـــدرة المال ، وهذه المؤثرات على الخصوص أريد أن أنساها .. انها تثقل كاهلى لا أريد مركزا ولا نفوذا ، وانما أريد أن أساعد كل فرد من خالص نفسى ، وأبعث فيه الأمل من اعماق قلبى ، أريد أن أكون للجميع على السواء ، فالأرواح فى أصلهـــــا أخوات ، لا أريد أن أسمع شيئا عن الرفيع والوضيع ، ولا أعرف ان هناك أرواحا سعيدة وأخرى شقية . وقد تنقلب الآية فيصبح السعيد شقيا والشقى سعيدا اننى أفهمهم جميعا لانى أحبهم على السواء ولا أعترف بعظمة غير عظمة المساواة . وأنت الا ترى ان السبل تفترق بنا كثيرا فى هذه النقطة .

لا أظن أننى سررت فى حياتى لبلوغ أمنية أو تحقيق رغبة بمثل سرورى لأمنية اليـــوم . وذلك لاتصالى بصميم مصدرها ولعلمى بأنى لم أنلها بالرجاء وانمـــا أستحققتها بخدمة الانسانية . فقد ولدت فتـــاة وجاءنى

اهلها يسألوننى الاذن بتسميتها باسم « جويدان » اننى أعتبرهم جميعا أطفالى حتى ولو لم يحملوا اسمى . فياجويدان الصغيرة لئن كانت هديتى اليك ليست الا أمنية ودعاء فانها ان تحققت كمـــا آمل فسترافقك السعادة أينما كنت وحينما نزلت .

كان أغلب الهاربين من المســـلمين . ولكن كان منهم المسيحيون واليهود أيضـــا . ولـكننى كنت أعمل على اسقاط الفوارق الجنسية والدين حتى لا يظن أحد منهم أنه مفضل على غيره ، أو أن له حقوقا أكثر من الآخرين .. ووزعت ماكينات الخياطة فى قسم النساء . فـكن يخطن الملابس لأطفالهن أو لرجالهن ودبت فى الجميع الحياة فأخذوا يتحدثون عن آمالهم وأمانيهم . فمنهم من كان يفكر فى الرحيل لأن لهم اتصالا ببعض الجهات . ومنهم من لم يبق لهم فى الحياة غير أنفسهم . وهؤلاء كانوا يرون البقاء مؤقتا . على انهم جميعا كانوا يعلمون ان البقاء فى رأس التين ليس له زمن يحدده .

أما الخديوى فكان يكثر الاحتكاك بالرجال ويشاطرهم الشعور . فان طبيعته البسيطة المرحة كانت تجلب اليه القلوب وتبعث على الوثوق به . حتى أصبح يعرف قصة كل واحد منهم . ورغم انه كان يتنـــاسى مركزه الممتاز فى حديثه معهم . فانى أعتقد ان كثيرا منهم كان ينسى همومه ويرى نفسه سعيدا لأنه يتحدث مع خديوى مصر . فكان يسرنى أن أرى القلوب تحبه .

كنت أنظر من نافذتى فى الحديقة . فرأيت الخديوى يسير مع بعض الرجال وهم يدخنون . فخيل الى انى لأول مرة أعرف ان الخديوى لا يدخن . ولعل السبب فى ذلك هو أن الاحترام يمنع الناس من التدخين أمامه

حتى ولو سمح لهم بذلك . ولكنه كان حريصا على أن يوزع التبغ والسجائر على الهاربين يوميا . فكان هؤلاء يدخنـــون في حضرته اعترافا بفضله وجميله . وكان لا يرى غضاضة في ذلك . فكان يمازحهم ويضحك معهم ويسحرهم بحديثه في الحديقة .

عدنا الى القاهرة ــ فاننا لا نمكث في الاسكندرية الا مدة قصيرة أثناء الخريف أو الصيف ــ مع العـلم بأن الفصول الأربعة تكاد تكون لا معنى لها في بلد تشرق فيه الشمس دائما . أما مقـــامنا في الشتاء فانه في القاهرة . ولم نسافر الى سراى المنتزه هذه المرة الا من اجل الهاربين وقد أصبحوا الآن آمنين يتمتعون بحياة منظمة هادئة بعد ان قدمنا لهم كل ما يمكن من المساعدة الخارجية . أما المساعدة الداخلية فانها عليهم أنفسهم . فلعل أمنهم في سراى رأس التين يدخل الطمأنينة على نفوسهم ويمحو منها الألم والخوف .

وقد كتب الخديوى أسماء هؤلاء المنـكوبين في كشف طويل واشار امام كل منهم بما تتطلبه حاله من المساعدات بعد البحث والتحرى كايجاد عمل له . او اعادة ترحيله. حسب الحالة . فأصبح مستقبل كثـــيرين من الأنفس والأرواح معلقا بهذه الورقة التى تقبض عليهـــا يد الخديوى .

وفي القطار كان الخديوى يأتى الى كثيرا في صالون الحريم . فكنت أزيح عددا كبيرا من الكتب لكى أفسح له مكانا الى جانبى . وفي المحطات الكبيرة كان الخديوى يقف في نافذة صالونه ويخفف القطار من سرعته لكى يحيى من وقفوا لاستقباله فانهم كانوا جميعا يفرحون لرؤية افندينا ولو من نافذة القطار .

وكان الخديوى يعمل مع معيته فى القطار فتعرض عليه الأوراق والاسترحامات ويضع البرنامج لليوم التالى فى عابدين . فان القاهرة كانت مقر الحكم والعمـــل والتشريفات الرسمية . ووقعت عينى على الشمس وهى تؤذن بالغروب وقد احمرت سبيكتها . فوددت او أن القطار ضل غايته . حيث نصبح كلانا أشخاصا تحركها الرسميات ويتحكم فيها الوسط وتحيط بنا دائرة محدودة لا نستطيع الخروج منها .

وددت لو ان هذا القطار اخذ يصغر ويتناقص حجمه حتى يصبح عربة واحدة ليس فيها الا أنا وأنت . لا أحد غيرنا . لا شيء سوانا . حتى ماضى وماضيك قبل أن نتعارف لا أريد أن يكون معنا الا ما أحدثنـــاه نحن بأيدينا .

الى أين تريد الرحيل ؟ ماذا يبتغى هناك ؟ وما عسى أن يكون موقفنا الواحد نحو الآخر اننـــا لن نكون الا شخصين لا يجد أحدهما الآخر الا اذا تلمسه بيده تلمس الأعمى . أو تظن غير ذلك ؟

غابت الشمس واختفت اشعتها وسار القطـار فى الظلام . واذا بى أسمع صوتك يقول : « فيما تفكرين يا عزيزتى ؟ لقد وصلنا » .

وصلنا ؟!

أرخيت قناعى وخرج الخديوى أولا من القطار وركب عربته البيضاء الى سراى القبة يتبعه رجال المعية . ثم غضت الأبصـــار ونزلت أنا الى حيث كانت تنتظرنى السيارة التى اقلتنى الى سراى مسترد .

سراى مسترد

كلما عدت من السفر ووقفت بى السيارة امام سلم السراى ينتابنى شعور غريب . كأنمـا سـتحدث أشياء مفاجأة . ولا أكاد استقبل الردهة الكبرى ويقع نظـرى على ما ألفت من الأشياء حتى أشعر بأننى أصبحت فى بيتى وفى منزلى . ولكن شعورى كان يتغير مع كل خطوة أخطوها فى الغرف فكان يخيل الى ان هذه الاشياء تقوم كالعقبة فى سبيل نفسى . فأعانى كثيراً من الشدة فى ازالتها لكى أستطيع التقدم وما اتقدم الا لأستسلم لشعور آخر اغالب نفسى فيه وتغالبنى . فاننى لا أستطيع التنفس فى وسط أهملته يد العناية . كما ان نفسى لا تطمئن الى الحياة فى جو خلقته بنفسى وتجمعنى به أسباب كثيرة من الحوادث والشعور .

فان تعدد الحوادث والمشاهدات يكون جزءا من الحياة يجمع ما بين الماضى والمستقبل وله على الحـــاضر أثر لا يمكن محوه او نسيانه . واصبحت حياتى أشبه شىء بمسافر كلما قطع جزءا من طريقه ترك عليه قطعة من نفسه ، فهو يلقى النظرة تلو النظـــــرة الى الوراء ليستعرض أجزاء نفسه المبعثرة على عرض الطـــريق الواسع ويسمع اصواتها تناديه لا لـكى يعود اليها ولكن لـكى يأخذها معه ويحملها حية من الماضى الى الحاضر الى المستقبل الى حيث يسير .

ليت شعرى ــ كيف يستطيع المرء ان يبدأ حيـــاة جديدة ؟ ماذا يصنع بحياته الماضية ؟! ام هو لم يعرف الحياة من قبل ؟ هل أشبهت نفسه لوح الصبى يمحو منه ما كتب ؟ أم تراه لا يمحو شيئا . لأن اللوح لم يجر عليه خط ولم تثبت عليه كتابة ؟

يظهر ان الحياة لا تكتب حروفها الا فى نفوس نسجت صحائفها من نسيج يمتص الحروف امتصاصا لا يجعل هناك سبيلا لمحوها .. ولكن ما عسى أن تكون النتيجة وحروف الحياة لا تنتهى بل تتجدد .. فهل يستطيع الانسان ان يحفظ كل هذه الحروف ويحملها على صفحات نفسه الى حيث لا يعلم .

انى فى منزلى اطوف فى حجراته ، فمن ذا الذى يقول ان الاشياء جماد لا حياة فيها ؟ ان الأشياء تحفظ تاريخ الحياة وتجيد اعادة القصص . فكم من حلم جميل أستعيد قراءته من بين هذه الوسائد الحريرية ؟

كنا جالسين أمام المدفأة ، وكنت أنظر الى نارها المشتعلة ولم يكن ضروريا أن انظر الى وجهها لأنك كنت بأكملك ماثلا فى نفسى .. ثم بدأت الحديث ولكن صوتك كان غريبا على أذنى كأنه صوت لا أعرفه . صوت بعيد عن دائرتنا .. وكان هذا الصوت يقص شيئا عاديا .. رجلا خان زوجته . ثم وجد نفسه مدفوعا الى الاعتراف لزوجته بهذه الخيانة .. فهل يعلم هذا الرجل أن صرحه هدم ؟؟ وهل يشعر حقا بضغط الجريمة على نفسه فيريد أن يخفف عنها بالاعتراف ؟ لم يحدث شيئا ، وظلت النار تشتعل فى المستوقد . واذا بيدك تقبض على يدى . وفى هذه اللحظة عدت أنت كما أعرفه ، فابتسمت ابتسامة لا علاقة لها بأفكارى . ففى نظرك انتهى الموضوع بانتهاء القصص . وأما فى نظرى فقد ابتدأ كل شىء الآن . وأنا اذا ابتدأت فلا توجد نهاية .

واستمرت الأشياء تحدثنى . وكان ضوء المصباح يسقط على البيانو .

ماذا دهانى ؟ هل جننت حتى انى أعذب نفسى

باسترجاع أمور أستطيع أن أدفنها فى زاوية عميقة ، فلا يكشف الغطاء عن حقيقتها ؟ .. ولكن .. ما قيمة هذه الحياة التى يعمل فيها الانسان الى أسرار غيره . فيتخذها سلاحا بعد أن يطليه بالطلاء الذى يهواه ؟ ما هذه المهزلة النفسية ؟ من هو ذلك العدو الذى أخشاه وأحاول الاختفاء عن نظره ؟ الا يكون ذلك العدو هو نفسى ؟

كم من ليلة قضيتها باكية لا لشىء .. الا لأننى انكر على نفسى جزءا منها لا خلاص منه . فكنت أهجر مضجعى وأضغط وجهى الملتهب الى خشب البيانو الأملس. وأسمع أوتاره تهمس فى أذنى « حذار » ! انك تسيرين فى طريق خطأ .. وان الأمل الذى تسعين اليه لا ينهض به انسان بمفرده .

لا أريد أن أرى ولا ان اسمع ولا أن افكر اكثر من ذلك، وليت النسيان يكتنف هذه الليلة .. فتحت الباب المؤدى الى غرفة نومى وقع نظرى على الخاتم فى اصبعى .. انه خاتم من زفير وعليه اسمك .

كيف استطاعت أن تتنكر لتحضر الحفلات الرسمية ؟

استطعت ان انفذ ارادتى فى السفر لحضور افتتاح قناطر النيل (فحبكت) الطـــربوش على راسى جيدا وجربت الانحناءة عدة مرات فلم يقع الطربوش . ولاحظت انه اذا وقع فلا ضرر من ذلك لان شعرى كان مقصوصا. ولكن الياقة العالية كانت تضايقنى كثيرا ، وحشوت اكتاف الردنجوت بالقطن حتى لا يظهر اتســـاعه وملأت (بوز) الجزمة (اللميع) بالورق . ولكثرة عزفى على البيانو كانت اصابعى تشبه أصابع الرجال .

بالاختصار .. كان شكلى يعجب كل سيدة لها ذوق سليم . وهذا الاعتقاد جعلنى أشعر بأننى اصبحت رجلا فعطرت منديلى وحملت حقيبتى الصغيرة المحتـــــوية على ملابسى الرجالى . وذهبت الى المحطة . وبينما كان الخديوى يحـــادث الرجال المحيطين به ركبت قطاره المخصوص . وكان طبيعيا فى مثل هذه الخطوة الجريئة الا تتم بمساعدة خادمه الخاص (فردريك) .

ولما تحرك القطار ورآنى الخديوى امامه لم يصـــدق عينيه ولم يتمالك نفسه من الدهشة ، فانه لم يتوقع

ان يرى مثل هذا السكرتير الأمين ، وفرح كلانا لهذا الموقف فرحا شديدا . ولكنى كنت أريد التمرن على الوقوف باحترام فكتفت ذراعى . وكلما قال كلمة رقيقة — طبعا لى أنا وليس للسكرتير — أجبت عليهـا أولا بانحناء واحترام . وبعد ذلك أجبت الاجابة الخاصة . ثم قال لى : « لا يجب أن تتكلمى يا عزيزتى » فوافقت على ذلك . فانه خير لى أن يعتقد النـاس انى سكرتير أخرس من ان يظنوا انى احد الأغوات اذا سمعوا صوتى الرقيق . وقد يذهب الناس الى ان شـدة الاحترام حبست صوتى . فالانحناء يقوم مقام الجواب وهـذا يقوى موقفى وموقفـه . ولم يعلم بسرى الا طورنسين باشا والدكتور كاوتسكى بك والخادم فريدريك . وذلك لاحتمال الاحتياج الى مساعداتهم فى بعض المواقف .

ووصلنا فى الصـباح الى الأقصر . وكانت مزدانة بالأعلام . مزدحمة بالناس . وصدحت الموسيقى من كل مكان وكانت السفن معدة على النيل للخـديوى وحاشيته . وسفينة الدوق أوف كنـوت . وسفينة للوزراء . وأشرقت علينا الشمس جـديدة . وجـرت السفينة فى ماء النيل . ووقف الفلاحون على الشاطئين يحيون الخديوى وهو واقف على ظهر السفينة . لا تفارق الأنظار عينيه . ووقفت الى جانبه أنظـر الى النيل . فتحول تحت نظرى الى شجيرات باسقة من القطن وواد أخضر ذى زرع امتلأت سـنابله بالحبـوب . فعجبت للنيل يجرى هادئا بين ضفتيه الرمليتين . وهو يحمل هذه القوة العظيمة بين موجاته . فحيث جرى يجرى الخير فى أثره . حتى أصبح روح هذا الوادى .

ورأيت الثيران تدير السـواقى برفع المـاء ورى

الأرض لذلك الفلاح الفقير الذى يعيش مع حيوانه فى كوخ متهدم من الطين . سقفه من قش الأذرة . والنيل يطعم هذا الفقير وذاك الغنى على السواء . فالفقير ياخذ منه كوخه . والغنى يبنى القصور وينفق من خيره الذهب ويتعشق النساء . فلا عجب ان عبده قدماء المصريين .. فكانوا يرون فيه المانع العاطى .

وسارت السفينة نحو السد الذى سيضمن تنظيم الرى وتوزيع الغذاء على أرض الشمس الدائمة واشتد الحر فى بدلة الردنجوت . قوددت فك أزراره . ولكن السكرتير يجب أن يقف فى صمت أمام سيده . فاننى كنت واقفة الى جانب خديوى مصر . وحاكم نوبيا والسودان وكردفان ودارفور ، ومن أجله نصبت الاعلام والزينات . واليه تتطلع انظار الجمهور المزدحم على الشواطىء . وفى أرضه يجرى ذلك النيل العظيم . فانحنيت على يده وقبلتها . فنظر الى نظرة اندهاش أجبته عليها همسا « أفندى مزجوق يشا » ففهم ما أريد . وظن الآخرون أن السكرتير الجديد يشكر مولاه على نعمة أولاه اياها .

ليتنى كنت رجلا يا أفندينا لكى أستطيع خدمتك وخدمة بلادك .

وفى المساء رست البواخر وظهرت الاضواء على الشاطىء . فنزل الخديوى وحاشيته الى البر حيث سبقته الوزارة الى السرادق الكبير الذى أقيم للتشريفة. واستقبل الخديوى رجال الدين وكبار الموظفين والباشوات والبكوات والمشايخ . وجلس اليهم يحدثهم . وكانوا يجيبون على أسئلته بأصوات خافتة كأنها آتية من مدى بعيد ولما غادرنا السرادق كانت

صفحة النيل قد امتلات بالقوارب الصغيرة على صفحات الماء الهادىء . ولا يزال اهالى الصـــــــعيد متمسكين بخرافة قديمة وهى أنه اذا وجد طفل على ضفاف النيل بالليل اخذه ابوه فى سفينة شراعية وصرخ بأعلى صوته فى سكون الليل وهدوئه قائلا : « ولد اليوم طفـــل فما عسى أن يكون اسمه » ويصـــل صوته الى الأغـــوار القريبة . وقد يكون بعض النـــاس مستيقظا فى تلك الساعة . فيرد عليه باسم يذكره . ويكون الفضل فى تسمية المولود بهذا الاسم راجعا الى الليل والنيل وصوت المجهول .

وقد تساءل الكثيرون عنى . ولكن لم يجرؤ أحد أن يجاهر بسؤاله بالقرب من الخديوى . وراتنى ابنة الدوق أوف كنـــوت من ظهر المركب فسألت طورنسين باشا عن ذلك التركى الجميل . فأدخل هـــذا على نفسى الزهو شأن كل رجل يعرف أنه أعجب سيدة من الطبقـــات العالية . ولم أجد مانعا من النظر الى الباخرة الأخرى .. فالسكرتير انســـان على كل حال . والأميرات كن جميلات .

واستقبل الخديوى أحد وزرائه على الباخرة وطال بينهما الحديث وكنت لا أزال واقفة أمام الخـــديوى واضعة يدى على بطنى . وفجأة نظر الى الخديوى وقال : « ألم يتعب من حب بعد ؟ » فجمدت فى مكانى وأصبت بالعمى والصمم والبكم دفعـــة واحـــدة . لأنى رأيت الاستنكار الشديد قد ظهر على وجه الوزير . وأصبحت سمعة الخديوى موقوفة على ما يدور على وجهى . ولكنى استجمعت كل ارادتى وحكمت نفسى فلم يظهر على وجهى شىء . وعاد الخـــديوى الى حديثه وقد بقى سؤاله

بغير جواب . كأنما وجه الى الفضاء . وما زلت آمل فى أن يكون الوزير ثقيل السمع .

وفى ٨ فبراير سنة ١٩٠٩ وضع الخديوى الحجر الختامى فى بناء سد النيل . وكان قد مضى عليه ثمانية عشر عاما فى الحكم . ولم يكن بين الخلائق المجتمعة وجه ظهر عليه الحب والاخلاص للنيل ووادية مثل وجه الخديوى . فانه لم يكن فى موقفه الخديوى الحاكم . وانما كان فلاحا يحب الارض ويجيد العناية بها . حتى أصبح من أشهر مزارعى القطر المصرى . وتنتج ارضه احسن المحاصيل . وكثيرا ما كان يشترى ارضا يظنها الناس جرداء لا خير فيها . فلا تمضى سنوات قليلة حتى تصبح هذه الأرض القاحلة أرضا طيبة تنبت الفاكهة والزرع . فكان الخديوى اكثر الموجودين اتصالا بذلك السد الذى جاء لافتتاحه . والذى نقش عليه اسم الخديوى من ذهب .

لماذا تنكرت بملابس ممرضة ؟

وكيف كان الخديوى السابق يقود يخت « المحروسة » بنفسه ؟

وصل الى تلغراف جفرى من الخديوى يطلب الى فيه ان أعود الى القاهرة متنكرة . فجلست أفكر . وبعد أن دخنت السيجارة العاشرة كنت قد انتهيت من وضع الخطة — وليس هناك شىء اعجز عن تنفيذه — وبعد ساعة كنت عند البارونة « آيور » رئيسة جمعية الصليب الأحمر . ورجوتها أن تعطينى جوازا كممرضة من

ممرضات الصليب الأحمر . وان تسمح لممرضة حقيقية أن تصحبنى فى رحلتى .

وبالرغم من دهشة البارونة لطلبى هذا شعرت أن هناك جوا من التفاهم يسود بينى وبينها ، والعقل والتفكير يتغلبان على أعقد الأمور التى قد تبدو مستحيلة لأول وهلة . ثم كلمنا الأستاذ « فرشق » ورجوناه فى أن يحضر الينا . ثم جلسنا ثلاثتنا نتشاور ونتبادل الآراء . ولما عدت الى الفندق كانت الخيـــاطة تعد لى ملابس ممرضة .

واشترت الرئيسة تذكرتى السفر . كما انها حجزت مكانى فى الباخرة واستطاعت هى والأستاذ أن يحصـــلا لى على جواز سفر باسم « الأخت صوفيا » ولكن ملابس الممرضات كانت متعبة جدا . فالقماش الخشن كان يحك جلدى فيؤلمنى . وفضلا عن ذلك لابد أن ألبس شعرا مستعارا لأن الممرضات لا يتبعن « الموضة » فى قص الشعر . ولما كنت غير متعودة على الشعر الطويل فانى كنت أجهل آداب اســـــتعمال « الباروكة » والضـــفيرة المستعارة .

وأعدت خادمتى « هارملين » حوائجى من أحذية بلا كعب ، وملابس من (الدبلان) وشرابات قطنية ، فلم أطق النظر الى هذه (التشكيلة) المخيفة .. ثم نشبت بينى وبينها معركة شديدة من أجل الكولونيا والروائح العطرية . وملابس النوم الحريرية .. وانتهت المعـــركة بانتصار باهر لى . فأخذت هذه الأشياء معى ، بعد أن وعدت وعدا مؤكدا بأن أستعمل الحيطة والحذر فى فتح حقيبتى ، ثم أرسل تلغراف جفرى الى الخديوى بيوم الوصول ، وانى لأحسد خادمتى على سفرها بحقائبى

الكثيرة المملوءة بالملابس النفيسة ، بينما أسافر انا كممرضة فقيرة « غلبانة » .

وقالت لي الرئيسة . لا ترفعي رأسك يا صاحبة السمو . واخفضي من جناحك قليلا . فلما فعلت قالت : هذا حسن . لقد أصبحت الآن أختا صالحة . ثم قدمت لي رفيقتي في السفر .

لم يكن يعلم بتنقلي احد غير الرئيسة والأستاذ والأخت الزميلة . حتى الخياطة كانت تظن ان الملابس لممرضة حقيقية . ثم حملت كل منا حقيبتها بيدها وذهبنا الى المحطة . ومعنا الأم الرئيسة واتخذنا مقاعدنا في الدرجة الثانية . ولما آذن القطار بالرحيل همست الرئيسة في أذني بأنه لا مناص من أن أنحني على يدها فاقبلها — وان كان يؤلمها ذلك — أو على الأقل أتظاهر بأني اقبلها لكي لا الفت الأنظار . على انه في الواقع لم يكن يؤلمني أن أقبل يد تلك الأم الصالحة ، فان تكن أختي قد قبلتها عن خضوع وذلة . فقد قبلتها انا عن احترام واكبار ، ثم تحرك القطار يقل اختين ممرضتين الى كريستا ، ومنها الى الاسكندرية لتقوما بتمريض سيدة محسنة عجوز .

وفي عربة القطار بدأت (المصيبة) فاني — بكل بساطة — وبدافع العادة اخرجت علبة السجاير فنظرت الى أختي بذعر وظهرت عليها دلائل الاغماء ونظرت الى السيجارة كما لو كانت قبلة وتوسلت الى الا أدخن . ولم يكن هناك أثقل على نفسي من اجابة هذا النداء — واتباع العقل قد يكون ثقيلا في بعض الاحيان — ثم تنبهت فجأة الى اننا لم نحجز محال في عربة النوم . ولكن الأخت (هلدجارد) أفهمتني ان هذا لا يتفق مع تعاليم الممرضات،

فلا يسمح لهن بالسفر فى عربات النوم الا اذا كان معهن مريض . فنمت ليلتى فى مكانى . وكان رأسى اذا مال اختل نظام وضع الضفيرة المستعارة ومالت « الباروكة » واصبح منظرى مضحكا ـ الله !! ـ متى تنتهى هذه الليلة ؟

وفى صباح اليوم التالى وصلنا الى تريستا ، فأردت أن أبرهن لزميلتى على اننى احسن الرحيل فأخذتها الى أحسن فندق فى المدينة وانتقيت أحسن الغرف فأثرت بذلك الشكوك حول شخصنا ووظيفتنا ، وبعد الحمام طلبت افطارا فاخرا . واقبلت على السجاير بشهية عظيمة ، لأعوض ما فاتنى منها فى القطار،وكان الجرسون الذى يقوم على خدمتنا يبتسم لنا ابتسامة غريبة وقحة. ولكنى لم أكن أعبأ بذلك .

وفى الباخرة خصصت لنا كابينة بسريرين فى الدرجة الثانية ـ الحمد لله ـ أخيرا أصبحنا بمفردنا .

كانت الرحلة جميلة . وكان طبيب الباخرة يجلس معنا فى الأكل . وسألنا عن وجهة سفرنا . فتركت الاجابة لأختى « المتمرنة » لأن صوتها كان عديم اللهجة خافتا تشتم منه رائحة المستشفيات . وجلست الى جانبى سيدة قصت على تاريخ زواجها المحزن . واختتمت قصتها قائلة (انت تفهمين أيتها الأخت) .

نعم ، ان هذه الأخت تفهم كل شىء ولكن لا يعنيها سماع هذه التفاصيل التى تخص طبيب النساء دون غيره .

كنت أطيل المكث فى « الكابينة » بقدر المستطاع اذ كنت أستطيع التمتع بلذة التدخين والتخلص من الشعر المستعار .

ما اسمج هذا الشعر الغريب الجامد ـ كأنما الشعر القصير طعن فى كفاءة الممرضة ـ وكنت آخذ الحمام كل صباح فأسر جدا لوجود ماء الكولونيا معى .

وفى برنديزى وقف كل الركاب على ظهـــر الباخرة للتفتيش على الجوازات . فاضطربت الأخت هلدجارد. فوقف كل منا يحمل جوازه بيده . وقد تلطف النـاس معنا بنوع خاص ، لأننا ممرضات نخدم الانسانية . ثم أعلن أن الجوازات صحيحة . وكان هذا هو كل ما رأيناه من الحرب التركية البلغارية .

وفى الليل سمعنا طرقا على بابنا . فقد مرض أحد الركاب ويحتاج الى تمريض ، ولما كان هذا ليس من اختصاصى فقد قامت الأخت هلدجارد لتأدية وظيفتها ، أما أنا فانى أدرت نفسى على الجانب الآخر لأستمر فى النوم . وقبل أن أنام رأيت الضفيرة المستعارة تهتز فى مكانها المعلقة فيه كأنها الثعبان .

وفى اليوم التالى كان الخديوى موضوع الحديث على مائدة الغذاء . وكان الحديث فى مبدئه عاما ، ثم أخذ يتدرج من الكلام عن الخديوى الحاكم الى الـكلام عن الخديوى الرجل ، فظهر الانتباه على وجهى لدرجة أن الأخت هلدجارد كاد يفمى عليهـــا خوف الافتضاح . فأخذت تغمزنى بحذائها الثقيل من تحت الطاولة . وكان الطبيب ضد الخديوى . فاحمر وجهى واضطربت عيناى ، ولكنى تمالكت نفسى وسكت .

وقص الطبيب ان الخـــديوى ســـافر مرة الى القسطنطينية على باخرة رومانية . وكان الجو عاصفا والبحر رديئا . فجزع الخديوى وخاف خوفا شديدا . فكانوا يهدئونه ما بين آونة وأخرى .

يا للكذب ... !!

أما العاصفة فانها حقيقية . وقد كنت معه فى هذه الرحلة . ولكنى لم أر شيئا من ذلك الخـــوف الذى يتحدث عنه الـكذاب .

لقد كان الخديوى أكثر مرانا على البحر من احسن قبطان . وكم من عاصفة اجتازها بيخته المحروسة . وقد تولى القيادة بنفسه . وظل طول الليل ساهرا يعطى الأوامر لرجاله وسط ضباب كثيف . وموج كالجبال ، وكان الخديوى اذا عب عباب البحر واصطخب موجه لا يفكر فى نفسه ولا فى حياته ، وانما يفكر فى المسئولية التى يحملها عن الآخرين الذين يقومون بخدمته .

بعد ذلك يأتى هذا الرجل ويخترع عليه الأقاصيص !! فـكنت أحدث نفسى قائلة :

ـ انتظر ... سوف أرد لك كل هذا بمكيال أوفى ، سوف ألقى عليك درسا لن تنساه ، سوف أجعلك طول حياتك تكره قصص العواصف والأمواج ، سوف أجعلك تذكر المرضات ذكرا لا يعتريه النسيان . ثم اعقبت هذا ـ فى سرى طبعا ـ ببعض الشتائم العربية ، لأن اللغة العربية واسعة المحصول فى هذا الباب .

***

ساءت حالة المريض الـــذى تمرضه هلدجارد ، ولم يعد ينقصنا الا الحجز فى الكورنتينة لـكى تتم المسرات ، وكانت زميلتى على دراية بالحالات العصبية ، فكانت تكثر من تدليك جسمى بماء الكولونيا ـ الذى كسبته فى موقعة الفندق فى فينا ـ لأنها كانت تخشى ان يعرف أمرى ونحن على ظهر الباخرة .

الحمد لله ، تحسنت صـــحة المريض ووصلنا الى

الاسكندرية ، وكان أول من غادر الباخرة ممرضتان من ممرضات الصليب الاحمر ، ثم اقلتنا العربة بسرعة الى مكان الحلاق « واشررو » فسألتني زوجته : ماذا تريدين أيتها الأخت ؟ ولكن صوتي جعلها تتذكر ان لها عينين تؤديان وظيفة النظر — فذهبنا الى مسكنها واحضرت الملابس اللازمة وبعد ساعة كان اكسبريس القاهرة يقل سيدتين تركيتين يغطي وجهيهما قناع أسود — وانتهى عهد التمريض والممرضات — وما أسرع تحول النساء من حالة الى حالة . فقد اختفت امارات الاستكانة من وجه زميلتي وعادت سيدة مهذبة لها دراية بالعادات والآداب وكانت دائما تعقب كل كلمة من كلماتها بكلمة : « يا صاحبة السمو » .

ولما وصلنا الى القاهرة امرت « العربجي » بان يذهب الى سراي عابدين فأطاع مدهوشا . ولما اكد اصل حتى أسرعت في مماشي القصر يهرول أمامي خادم لينيه « الخادم الخاص فريدريك » الى حضوري . ولم يكد هذا يراني حتى أسرع لأخبار الخديوي الذي جاء مسرعا للقائي . وحولت الأخت عينها عنا .

وكان الخديوي قد طلب قائمة بأسماء جميع ركاب الباخرة . ولكنه لم يستطع ان يتبين الاسم أو الشكل الذي تنكرت به . وبالرغم من ذلك ارسل الدكتور كاوتسكي بك لانتظار الباخرة التي حضرت عليها فلم يعرفني . وهذا دليل على أن تنكري كان بالغا حد الاتقان .

وبالطبع اخبرت الخديوي بخبر الطبيب . فتوجه طورنسين باشا الى ادارة شركة اللويد النمسوية وانكر الطبيب أولا وقوع ذلك منه . فانه كان يعرف كل

بجلسائه على المائدة ـ لكنه نسى الممرضات ولما اخبر بأن هناك ممرضة على استعداد لمواجهته ادرك الحقيقة وبلغنى انه كان يشك فعلا فى شخصيتى لكثرة الحمامات التى كنت آخذها ولرائحة الكولونيا التى كنت اتركها فى الحمام .

اما الممرضة الحقيقية فانها بعد أن امضت عدة اسابيع فى ضيافتى فى قصر مسترد عزمت على الرحيل وجاءت تودعنى فى لباس الممرضات فسرنى جدا ان ارى هذا اللباس الخشن على جسدها هى ، وليس على جسدى انا .

لماذا كانت تفضل الإقامة فى الآستانة ؟

على الاقامة فى قصور القاهرة بين مظاهر الهناء والنعيم ؟

وبماذا كانت تشعر اثناء رحلاتها فى القطار والفنادق ؟؟

القسطنطينية فى شهر رمضان

سنمضى صيف هذا العام بأكمله فى الآستانة بعد أن قررنا عدم القيام بالرحلة الأوربية السنوية ولم يسئنى هذا القرار لأنى أحب الآستانة حبا جما . وأشعر بانى مرتبطة بهذا العمل برباط نفسانى شديد .

كنا بالآستانة بعيدين عن رسميات القصور فى مصر ، واذا استقبل الخديوى أحدا هنا فان هذا الاستقبال يكون خاليا من الصيغة الرسمية . بحيث يمكن اعتباره زيارة عادية بسيطة .

هنا كنت اشعر حقا بأننى متزوجة . وما أجمل هذا الشعور أحيانا !! فانه يكسب الأحلام لونا جميـــــلا ثابتا .

هنا كان يملكنى اليقين بأنك زوجى وانى زوجتك . واعتقد اننا فى هذا الجو . كنا نتبدل أناسا آخرين . حتى فى شعورنا الواحد قبل الآخر .

واعتقد ان حيـــــاتى كانت تتقلب بين اطوار ثلاثة مختلفة . واحد منها فى القاهرة . مقر الحكم . والثانى اثناء الرحلات . والثالث فى الآستانة .

أما فى القاهرة فلم اكن أر فيك الا الخديوى فقط . حتى أثناء زيارتك لى فى سراى مسترد . كنت لا استطيع أن أنظر اليك نظرتى الى شىء خاص بى . ويكفى أن أرى العربة التي تنتظرك فى الحديقة لأعلم ان زيارتك مرضية محدودة . وليس أدل على هذا من أنه توجد فى سراى مسترد غرف لا نعرفها ولن تطأها قدماك .

كانت سراى مسترد ملكا لأحد الأغوات . فلمــــــا مات عادت الى الأملاك الخديوية ولم يسكنها احد قبلى . فلما خصصت لسكنى ادخلت تغييرا كبيرا على بنيانها وأثاثها وتركيبها . وكونتها تكوينا جديدا يتفق مع ذوقى الخاص . فان تكن هذه السراى قد اصبحت بيتى . فانها لم تكن يوما من الأيام بيتا لنا .

وأما فى الرحلات ــ مهما طالت مدتها ــ فاننا كنــــا نلتقى قليلا ولمدة قصيرة . اذ كنا دائما نعيش فى مكانين منعزلين ــ وان كانا متقاربين ــ سواء فى الباخرة أو فى القطار او فى الفندق .

أما فى القسطنطينية فحياتنا تختلف عن كل ما سبق . فقد قامت سراى شويكلى تحت أعيننا وعنايتنا معــــا منذ كانت رسما على الورق . فدرسنا تفاصيلها قبل أن يقوم بنيانها . واشترينا بأيدينا كل ما يلزم لهــــا من أقمشة وأثاث . كذلك الأشجار والورود والمزروعات كلها غرست وفقا لارادتنا ومهــــدت الطرق حسب ما ارتأيناه . فالسراى كلها قامت حسب رغباتنا . ومن اجلنا . لا من أجلك وحــــدك ولا من اجلى وحدي .

وكذلك الحال فى كشك « تشقتليك » حيث تمضى رمضان هذا العام . وقد أمرت أنت بعمل الطريق الذى يؤدى ما بين شويكلى وتشقتليك ورأيناه بأعيننا يمهد حتى تم .

اذن فبيتنا الحقيقى « بيت كلينا » لا يوجد الا فى الآستانة .

قل أين نتناول الطعام اليوم ؟ افى شويكلى على شاطىء البحر فى « سلاملك » الحديقة أم فى السراى فى الشرفة الكبيرة ؟

بدأت الأنوار تضىء الواحد بعد الآخر . فكانت كأعين تنشر ضياءها على صفحة البسفور . وأخذت السفن تراقص أمواجه تحت ضوء القمر .

ما أكثر ما سألتنى « فيم تفكرين ؟ » ليتنى أستطيع أن أقول ذلك انه ليس تفكيرا . ولا اتصال له بالواقع . وانما هو شعور يرفرف بجناحيه ويطير فى واد متسع ليس له حدود ولا يعرف من مخبوئه الا شعاع أو خيال . أو فى محاولة لاخفاء حوادث تعاقبت عليها الأيام حتى كادت تفقد لون الحقيقة . ولم يعد يذكرها أحد الا كاشاعة لا تبرزها على حقيقتها . ولـــكن كلون باهت وصدى ضعيف لنغمة قديمة . متى تحين الساعة التى أرى فيها حقيقة اليوم تمتد أمام بصرى كواد ذى زرع نضج ثمره حتى لا يخيل الى ان هذه الحقيقة بجملتها أصبحت ملكا للماضى .

« ما أغربك !! .. » طالما سمعت منك هذه الجملة أيضا .

انى لأكتب الآن فى كشك تشقتليك . ثم أرسل بصرى من بين أشجار العنب الى الطريق الذى ستأتى

منه سيارتك ـ وكلّ مرة ارى فيها تلك السيارة تقطع الطريق الى القصر يخالجنى شك فى أن هذه السيارة آتية الى وانها ستقف أمام الكشك الذى انتظر فيه ـ فاضطر امام هذا الى تذكرة نفسى بانك انت الجالس فى هذه السيارة ـ ومن الغريب ان نفسى ترى فى كلّ شىء أمرا عجبا !! حتى ولو كان من انشط الحوادث ـ وقد تقع أمور يمر عليها غيرى مر الكرام . بل قد لا يحسون بها . أما أنا فانى أرى فيها سرا خفيا . فأوغل فى الحدس والتخمين . غير واجدة اساسا ثابتا ارتكز عليه .

وأغلب ظنى ان كثرة البحث والتفكير هى التى ولدت فى نفسى حب الاستقصاء . ففيرى لا يعنون بالبحث ومنهم من عميت بصائرهم فتوهموا انهم قد وقفوا على الحقائق !!

الله !! .. ما هذا الجوع الذى اشعر به ؟

حقا !! انه رمضان !! وهانذا اسمع الحراس يتهامسون مع بعضهم البعض ويقولون انه باق نصف ساعة .

ومعنى هذا ان الشمس ستغرب بعد نصف ساعة ـ اى ان المعدة ستسكن بعد هذا الوقت ايضا ـ فوضعت اذ ذاك الى جانبى سيجارة كبيرة . فانها ستكون أول ما أبدأ به .

ها هى السيارة تسرع فى طريق القصر . وفى هذه المرة أجد نفسى واثقة من انك فيها . ولست ادرى لماذا يخفق قلبى بهذه الشدة ؟ أمن الفرح ؟ أم الجوع ؟

ثم ابدأ اليوم بالسيجارة لأن السائق كان أسرع من المعتاد والأكل في رمضان يختلف في سائر الايام ـ فتعدد الألوان وكثرة الأواني الصغيرة وفكرة ان الاكل الآن لا لأن الانسان جائع فقط . بل لأن الأكل غير مسموح به الا الى مطلع الفجر ـ كل هذه الأشياء غير مألوفة في الأصل . وكذلك النوم يختلف في رمضان عنه في الأيام العادية . فالانسان ينام في رمضان بسرعة ويظل نائما حتى موعد الطعام .

جلست الى مائدة صغيرة لنتناول السحور على ضوء الشموع . ثم شربت كاسا من الماء وتلوته بسيجارة . ثم امسكنا لنستقبل صيام يوم جديد .

لماذا حاول السلطان عبد الحميد
منع زوجة الخديوى السابق من السفر الى اوروبا ؟
وكيف كانت زوجة الخديوى تقضى شهر رمضان ؟؟

جاء اليوم الثاني من رمضان بزيارة غير متوقعة .

وعادة يحاول الانسان في رمضان قتل الوقت لكى يمر سراعا لا لأنه يشعر بالجوع . فان تحديد مواعيد الأكل لتأخيرها عن مواعيدها كفيل بذلك . ولكن لأن النوم وحده لا يشبع البطون ـ ثم ان كثرة المحظورات . واشتغال الفكر . بأن هذا محرم وهذا ممنوع . يجعل الانسان يحس بفراغ ويشعر بقوة هذه المحرمات ـ فالممنوع متبوع .

كانت الأثاثات في الردهة والصالون مغطاة بأغطية حريرية تسيل الوانها كالماء ـ اظن انني ظمأى ولا اريد الاعتراف بذلك . وما هي فائدة اعترافي بالحقيقة . واقراري بالظمأ . ما دامت الشمس لا تزال في كبد

السماء ؟ وكنت دائما احدث تغييرا فى الأغطية وتبديلا فى الوسائد لكى أقتل نهار الصيام الطويل . وأثناء جلوسى فان الأقمشة والوسائد الجديدة سمعت صـــوتا ينادى بلهفة .

هانم أفندى .. هانم أفندى .

لابد أن يكون هناك امر مهم . والا لمـا اجترأ هـذا الصوت على الارتفاع فى سكون الحريم ـ وفعلا كان هناك امر مهم ـ فقد وقف الخديوى يتحدث مع امير تركى فى الحديقة ويريه تنسيقها . ففهمت أن الخديوى انما أراد بذلك ان يمنحنا الوقت الكافى للانسحاب . فحملنا الأقمشة والوسائد وأسرعنا الى الدور الثانى . ولما دخل الخديوى وضيفه الى الصالون لم يكن فيه أثر ـ ولو بسيط ـ يدل على انه كانت هناك نساء فى الصالون منذ لحظة .

وكان الأمير قد خرج فى نزهة مع الخديوى . وفجأة أبدى رغبته فى زيارة الكشك غير عارف بأن الحريم يسكن فى الكشك أيضا ـ فقد كان يظن ان الحريم موجود فى سراى شيكلى . ولم يجد الخديوى بدا من اجابة رغبة الأمير فان العـادة كانت تحرم ذكر الحريم فى الحديث . فيتخطاه الانسان بالســـكوت . فليت شعرى لم هذا ؟ الأن قيمتنا ثمينة أم لأنه ليست لنا قيمة ؟؟

وشعر السلطان عبد الحميد ـ بصفته ظل الله عـلى الأرض ـ بأنه مكلف بأن يفهم الخديوى بأن سفرى معه الى أوروبا أمر لا يليق اطلاقا فأخذ الباديشاه يتكلم ـ على وجه العموم ـ بأنه لا يليق بالمرأة المسلمة ان تتبع العادات الافرنجية . ويستحسن الا تسـافر المرأة

المسلمة الى أوروبا . وغير ذلك من التعاليم الغالية .

وظن السلطان ان الخديوى يستمع الى نصائحه . ولكنه نسى ان لى كلمة فى الموضوع أيضا . وعندما قص الخديوى على هذا الحديث ذا المعانى الكثيرة . وكنت اقلب الملابس التى وردت لى من باريس خصيصا للرحلة ، فأعجبت بها اعجابا شديدا هذه المرة على الخصوص .

ما للسطان ومالى ؟ لم يتعرض لحياتى ورحلاتى واعمالى ؟ ما شانه فى هذا ؟ لن افكر لحظة واحدة فى التنازل ، وما كان الطف جوابك لى (افعلى ما تريدين يا عزيزتى) .

ثم جاء يوم الرحيل ، وكان مقررا ان الخديوى بعد أن يستقبل زائريه الرسميين يذهب مع حاشيته الى محطة (جالاطة) لركوب قطار الشرق السريع ، وقبل موعد السفر بساعتين غادرت شويكلى فى زورق بخارى ، ولم يكد الزورق يتحرك حتى ظهرت سفينة ترقبنا عن بعد ـ جواسيس يلذ يثبتون وجودهم ـ ولكن علم الخديوى الذى كان يخفق على الزورق جعلهم لا حول لهم ولا قوة ، ثم أسدلت الستائر فى الغرفة الداخلية ونزعت ملابس الهوانم التى خرجت بها من شويكلى .

ولما وصل الزورق الى محطة « جالاطة » خرجت منه سيدة أوروبية ترتدى أحدث الأزياء الباريسية ، أسرعت الى القطار فاستقبلنى الكلب « بوللى » بفرح شديد وهو يثب حولى ، ولكنه دهش للقبعة التى لم يالف رؤيتها فأخذ « يشمشم » فيها مستغربا !!

ما اجمل ان تكون المراة زوجة لخـــديوى مصر !!
وبخاصة عندما يقول : « افعلى ما تريدين يا عزيزتى » .

يبدو النهار فى رمضان طويلا جدا ، وذلك لأنه ينقصه ما اعتاده الانسان فى فترات الطعام والتدخين والتلهى . ويوم رمضان لهلون خاص نظرا لنزول الانسان فيه عن عادته التى اعتادها طول حياته ، فاليوم الاعتيادى ليس الا وقتا مقسما بين هذا وذاك ، ولكن يوم رمضان يوم مستقل ووحدة ثابتة تأخذ مجراها من مطلع الشمس الى مغربها ، والانسان عادة يحكم على وقته ويتصرف فيه فيقسمه حسب سبل معيشته ، أما يوم رمضان فانه يحكم نفسه بنفسه ، ولست أرى لنفسي مكانا فيه ، وليس لى الا أن أنظر اليه واتبع مجراها حتى تغيب الشمس ، وعنـــدها فقط تستطيع عاداتى أن تطالب بحياتها ، ولكنها حياة تبدو كذكرى اكثر منها حياة ، فان الأشياء التى اعتادها الانسان أن يفعلها نهـــارا تحت أشعة الشمس تفقد رواءها فى الظلام ، فمثـــلا القهوة باللبن اذا شربت مساء فانها — رغم لذة طعمها — تنقصها بهجة الصباح ، وكذلك الأحلام التى يحملهـــا الانسان بعد غذاء منتصف الليل تكون خالية من الرقة — فانها أكثر من أن تكون حلما — وكل هذه الأشياء تحدث « ضيقا » فى المزاج . فليس غريبا ان يكثر الطلاق فى رمضان عند من لا يضبطون أنفسهم ، فـــان الجوع والعطش وعدم التدخين تجعل الواحد منهم سريع الغضب ، قليل الصبر . عديم التفكير . وكل هـــذا يقع على راس المراة المسكينة التى لا تستطيع أن تساعده بشىء فى هذا الموقف .

اما انا فكنت ارى فى رمضان مجهرا أرى به الناس

على حقيقتهم ، لا تخفيهم العادات وملابسات الوقت ؛ فهذه الايضاحات الداخلية لا شأن لها بالفـــــوارق الظاهرية ، وكلما أمعنت فيهـا النظر ازددت يقينا بوحدة الفرد .

ماذا يريد رمضان منى ؟ هل يريد ان ينبهنى ؟ هل يريد أن يثبت لى ــ بالجـوع ــ أن تصميم حيـــاتى ينقصه الأساس ؟ وانى لشـــدة تعلقى بالأمل يخيل الى أحيانا أن آمالى قد تحققت ، وهى لم تفادر بعـــد قرارة نفسى !! وهل أصبح اليوم الممل والمعدة الخالية عاملين قويين يستطيعان رفع الغشاوة عن العين فتصبح مبصرة ؟ أغلب ظنى ان رمضان هذا سيسلبنى عقلى !!

أيام الصيف طويلة تصبح الشمس فيها عدادا للساعات ليس الا ، وبين الفترة والفترة يطالب « كيف » الدخان بحقوقه ويضغط على العصب المتأثر بالتدخين فأسمع لـ فى رأسى صوتا أحد من صوت الطيور .

ليس فى نفسى استعداد للتجرد ، ولا أصلح الآن أكون من المتصوفات ، وأشعر جيدا أن حالتى بائسة ، مع أننى كنت فى غنى عن كل هذا ، ومن حسن حظى ينظر من وراء كتفى فيقرأ ما أكتب ، ولو ان احد الجنـــود الواقفين أمام الكشك أطلع على ما أكتبه لاحتقرنى بكل تأكيد ، ولكنه ــ والحمد لله ــ فى الخارج وانا فى الداخل ، فهل يعلم عنى شيئا ؟ واذا راى طرف غطاء راسى وقف « زنهار » وادى التحية .

يالله !! ما أخون هذه الحياة .

وليس مزاج الخديوى اليوم على ما يرام ، فقد عنف (المكوجية) لأنهم يبطئون فى الكى ، وآمل الا يكون قد طرد (المكوجى) الذى يجيد كى (البلاسيه) ولست

ادرى كيف يستطيع خديوى أن يهتم بالفسيل ؟ وعادة اذا احتجنا الى شيء اخبرناه به فيحدد هو بنفسه الوقت والسيارة والسائق لاحضار هذا الشيء .

انه لمن السخف أن تمر كل صغيرة على الخديوى ، حتى اننا فى بعض الأحايين نخشى أن نخبره بتأخر بعض الطلبات خوفا من ان يغضب على المكلفين بادائها فيخصم من مرتباتهم او يطردهم ، ولست ادرى كيف يتسع وقته وفكره للاشتغال بهذه الأشياء حتى أصبح خدمه غير قادرين على العمل برأى مستقل ، وهذه الظاهرة قوية فى نفسه ولا يمكن تحويله عنها ، فقد استخدمت مديرة للمنزل فى سراى شويلكى ، ولكنى لم ابلغ بهذا اكثر من اننى أضفت انسانا جديدا الى من يسألونه الرأى ، ولكن لا عجب فى ذلك فالسلطان عبد الحميد نفسه يهتم فى سرايه بكل شيء ، حتى الفسيل القديم يحظى باهتمام الخليفة والأوانى التى يشرب منها يختمها نفسه بخاتمه .

كيف نشأ العداء بين الخديوى واللورد كرومر؟

جلس الخديوى على العرش وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، ولم تكن الظروف حسنة ، فقد خلف أبوه توفيق باشا ، وكان حاكما ضعيفا ، من بعده جده اسماعيل باشا ، وكان حاكما صرفا كبير المطامع .

ولما تولى العرش لم يجد فى بداية حكمه تعضيدا كافيا ، فان اللورد كرومر لم يكلف نفسه عناء الاتصال بنفسية ذلك الخديوى الصغير ، فان السياسة الحجرية لا تعرف معنى العواطف والشعور ، فكان اللورد كرومر لا ينظر الى الخديوى الا كرئيس عنيد الرأى ، وربيب له غير محبوب منه ، لأنه كان مضطرا لمخاطبته بلقب « يا صاحب السمو » وهو يعلم ان الخديوى ليس له من الأمر الا هذا اللقب ، على حين انه كان يشعر بأنه هو الحاكم الحقيقى وكان هذا كافيا لأن ينظر اللورد الى الخديوى كدمية يجب عليها الطاعة ، ولكن الطاعة كانت غريبة على خلق الخديوى منذ الصغر ، وكان قوى العزم عنيد الرأى ، وفوق ذلك كان محبا للكفاح ، ولعل

هذا الخلق تولد فى نفسه عندما شعر بالمسئولية الملقاة على عاتقه والتى كان فى امكانه الاضطلاع بها دون أن يضطر الى الوقوف موقف الدفاع أمام هذا العدو القوى الذى كان فى امكانه ان يذله كحاكم وانسان .

وليس من المعقول ان خديويا — ولو كان نصف وطنى فقط — يتقبل صداقة ديكتاتور أرغم على قبوله من قوه معادية ، وكل نظرة اليه تذكره بضعف بلاده وهزيمة أسلافه ، فكان أصعب وقت مر على الخديوى هو الوقت الذى امتد فيه ظل كرومر فى مصر ، فانه كان يعامل الخديوى باعتبار انه فى الثامنة عشرة غير عابىء بحدته ولا احتجاجه .

ولما حضر السير الدون غورست تنفس الخديوى فقد كان — غورست — رجلا لينا لطيفا على الرغم من السياسة . ولو ان غورست كان فى مصر عندما جلس عباس الثانى على العرش لكان ذلك أصلح لتطور أخلاق الخديوى ، فانى أتهم اللورد كرومر بأنه السبب فى بعض خبث الخديوى .

كان غورست هو الشخص الوحيد الذى اخلص له الخديوى فى الود وتعلق به تعلقا شديدا مقرونا — كحاكم وكرجل — وعندما كنا فى لندن وبلغ الخديوى ان المرض اشتد على السير غورست وهو فى بيته الريفى ، أسرع الى عيادته فى الحال ، ولما عاد كان فى حالة حزن شديده لم أعهدها عليه من قبل ، ثم قال « لقد تحدثنا ... ثم صلينا .. » فكان للجميع فى الصلاة معنى ساميا ، فقد تجلت فيها الرابطة الانسانية بين الرجلين . تلك الرابطة التى ألفت بين المسلم والمسيحى ، بين السياسى الانجليزى والحاكم المصرى ، فجعلته ينسى كل شىء

ويشترك مع صديقه فى صلاته وهو على سرير الموت .

كان الخديوى يحب بلاده حبا اكيدا ، ويتعلق بارض مصر تعلقا شديدا ، فكان يرعى أرضه بصبر وجلد ، وهى تنمو عاما بعد عام تحت اشرافه الشخصى ، فقد كان من دابه الا يعتمد على اقوال غيره ولا يصدق الا ما تراه عيناه ، وليس قطر المنتزه الا نتيجة مجهودات سنين متتالية أحالت أرض البحر الرملية الى حدائق غناء تنبت الزهر والفاكهة . وتغلب الخديوى على كل الصعوبات القائمة وانشأ للقصر مرفأ جميلا عميقا له رصيف من الحجر الصلد ، وكثيرا ما كنا نركب العربة الصغيرة للنزهة فى حديقة القصر وعلى شاطىء البحر فتستقبلنا الزهور بأريجها الطيب والوانها الزاهية ، فان الطبيعة اسرفت هنا فى جمال الألوان وطيب الأريج ، فانما اتفق البر والبحر على أن يكونا فنا من الجمال .

وكانت آثار الخديوى تظهر على كل ما تتعهده يده ، سواء فى القصور أو التفتيش أو المزارع . فتفتيش ادفينا وتفتيش الاسماعيلية ، كلها كانت اراضى جرداء فاصبحت مثمرة تدر الخير عليه وعلى الفلاحين القاطنين فى تلك النواحى .

وكان الخديوى يزهو بنمو ثروته ، وقد أخذ عليه البعض انه يستغل مركزه لمصلحته الخاصة وانه كان تاجرا ، على ان الخديوى لم يكنز ثروته فى الصناديق ، او يودعها البنوك كشأن امراء الشرق بل كان ينزل بثروته الى السوق فتستفيد من ورائه انفس كثيرة .

ومن المدهش ان ما يحتسب لسائر التجار كحسنات يحتسب للخديوى كسيئات ، والواقع ان الخديوى كان

تاجرا اكثر من التجار ، يزن الاشياء بمقدار ما تدره من الارباح ، فكانت مينـــاء المنتزه مؤجرة الى احـد الصيادين الذى كان يبيعنا ما يلزمنا من « الجنبرى » وما يلزم للسراى من الفـــاكهة كنا نأخذها من متعهـد آخر ، واثناء سفرنا كانت كل الزهور والرياحين تباع ، وكل ذلك من اجل الكسب ، والكسب متبوع بالاقتصاد والتوفير فى الغالب ، ولكن الاقتصاد مذموم فى الملوك بقدر ما هو ممدوح فى الأفراد ، وكان فى الملابس اذا تقطعت بطائنها لا ترمى ولا تهمل ، بل تعمل لها بطانة جديدة .

ولمـا كان الخـــديوى لا يكسب الا مبالغ جسيمة ولا ينفق القرش الا فى موضعه فانه كان لا يعلم كيف اننى أشترى زهورا بخمسة فرنكات وحجته فى ذلك ان الزهور مصيرها الى الذبول ، ومع ذلك فان زهرة واحدة كانت تهدى اليه تجعله يدفع فاتورة حساب كبيرة على الفور ، فقد كانت من عادة صاحبة مخزن الموضة الذى اتردد عليه فى باريس ان تهدى الى كل منا زهرة جميلة بمجرد وصولنا ، وفى هذه الأثناء تعرض على أحدث أزياء القبعات لانتقى منها على الأقل « دستة » لأستعملها اثناء رحلتى فى أوروبا ، وكان الخـــديوى لا ينظر كثيرا الى المجموع الكلى ، على حين انه كان يدقق فى المفردات ، فمثـــلا لا يهمه أن يدفع مائة الف فرنك ثمن ملابس لى ، ولكنه اذا قرأ فى الفاتورة أن أحد الفساتين يساوى ٨٧٥ فرنكا فانه يرى ان هذه الفرنكات زيادة عن اللزوم ، ولهذا كان الموردون يضعون الاثمان دائما بالأرقام الصغيرة فلا يرى الخديوى فيها شيئا ، وكان الماء لا يتسرب من بين أصابعه فكان يقول لى « اننى

أعرف كيف أحافظ على المال » ولعل فى هذا كثيرا من الحقيقة ، فاننى على عكسه لا أستطيع منع المـــاء من التسرب من بين أصابعى .

كان الخديوى فى بداية كل عام يضع ميزانية لمشروعاته المعمارية فى القاهرة ، فانه كان ينشىء فى كل عام عمارة ، حتى أصبح يملك أحيـــاء بأكملها ، وكنا فى المساء نخرج متنكرين للاشراف على ما تم من البناء وكان الخديوى يصعد (السقايل) ويتنقل فوقها بخفة مدهشة، وكان اذا مر على عمارة أخرى أدرك عيوبها على الفور ، وكانت ملاحظاته دائما فى محلها .

وعندما انشأ ســكة حديد مربوط اختلف المهندسون على تصميم أحد الكبارى ، وأخيرا أقروا جميعا التصميم الذى وضعه الخديوى بنفسه ، وقد عد الناس اقدامه على انشاء هذا الخط ضربا من الخرق ولكنه كان أبعد نظرا منهم وأحصف رايا .

وقد كسب الخـــديوى قلوب العربان بانشاء هـــذا الخط ، فكانوا لا يتحـــدثون الا باعتبار انهـــا سكتهم الحديدية .

ولم لا ؟؟ أليست تقوم على (أرضهم) ؟

كان عباس حلمى أول خديوى خضع له العربان بلا قيد ولا شرط ولما ذهبنا لافتتاح خط مربوط وتناولنا القهوة عند شيخ العربان كان يبدو على الرجل ما يشعر بانه يرى نفسه قريبا للخديوى وندا له رغم ما كان يبديه نحو شخص الخديوى من الاحترام .

ولم يحدث ان أحدا من العربان اخل بثقة الخديوى فيه الا مرة واحدة ، اذ كنا نقوم برحلة فى الصحراء ،

كانت الخيام اللازمة للمبيت ترسل قبلنا بيوم لكى تكون معدة عند وصولنا ، وكنا ـ انا والخديوى ـ نركب سيارة ومعنا سائقان ويتقدمنا دليل عربى على جمل .

وسارت الرحلة ببطء واستقبلتنا الصحراء باسرارها وجلالها وأصبح الطريق لا يزيد الا عن بحر من الرمال مترامى الأطراف ويهيىء الرأى للعين ان كل شىء على مقربة منها .

ومالت الشمس ولم نصل الى خيامنا ، فأوقفنا السيارة وتكلم الخديوى مع الاعرابى ، ولكن الأخير أكد انه لم يضل الطريق ، ولم يظهر على وجهه الأسمر اثر ما ، فتتبعناه من جديد ثم حل الظلام واذا بالدليل والدابة يختفيان فجأة كأنما ابتلعتهما الأرض او طواهما ظلام الليل ، وتابعنا رحلتنا على ضوء النجوم . فيا ترى هل تعطلت غريزة الاعرابى لأنه يقود آلة ولا يقود حيوانا ، أم انه فقد قياد جمله الذى رأى فى السيارة منافسا له فى الصحراء ، فكره صحبتها !؟

ومضت ساعتان ونحن لا نزال فى الطريق لا ندرى انسير الى الأمام أو الى الخلف . ثم تولى الخديوى سياقة السيارة بنفسه ، وجلست الى جانبه فشعرت بالطمأنينة ، وجعلنا نهتدى بالنجوم وأخيرا رأينا أضواء وسمعنا أصواتا ، واذا بنا أمام فصيلة من الجند تهيأت للبحث عن الخديوى ، ثم وصلنا الى الخيام .

ومع اننا لم نقف فعلا فى الصحراء ـ فانه ليس من السهل أن يترك الخديوى يضل فى الصحراء ولكنا تذوقنا مقدما طعم آلام الصحراء ولم يكد يختفى الدليل حتى اتجهت انظارنا جميعا الى وعاء الماء الذى له القول

الفصل في الحياة أو الموت بين هذه الرمال .

وعندما أذكر هذه الحادثة الآن أشـــعر بجفاف في حلقي ، وكأنه جفاف رمضان ، فقد تنقلت بفكرى بين غرف القصور ورمال الصحراء والشمس لا تزال باقية لم تغرب بعد .

ومن يدرى بماذا أشعر عندما أعيد القراءة فيما أكتبه الآن في « تشنتلتك » ؟ لا شك انى سأشعر بالجـــوع والعطش ، ولكن ربما شعرت بالشوق أيضا .

لماذا كانت الاميرة تتمنى أن تكون رجلا صديقا للخديوى وليست زوجة له !

كانت كل الحيوانات التى تهدى الى الخديوى ترسل دائما الى سراى مسترد . وفى مرة أهداه شريف مكة كلبين عربيين من كلاب الصيد فى الصحراء وأرسل معهما بدويا لكى يعطى التعليمات اللازمة عن أكلهما وشرابهما وهو بلح بنوائه وشرابهما اللبن ، وقد أخذتهما معى فى السيارة من القبة الى مسترد ، فكنت طول الطريق جالسة بين خطرين وكنت قد امرت باخلاء غرفة فى مسترد لأجل الكلبين . ولكنهم نسوا أن يخرجوا منها دولابا عاليا كان فيها ، فكان الكلبان لا يفترقان عن هذا الدولاب فى الأيام الأولى ، ولكنهما بالتدريج اصبحا أليفين على انهما لم ينزلا عن عادة الصحراء فكانا لا يذوقان اللحم ، واذا قدم لهما بلح خال من النوى فانهما لا يقربانه ، وكانتا يتراجعان أمام منظر الماء ولم نستطع أبدا اغراءهما على شربه .

ولما عاد الخديوى من الحج أحضر لى ببغاء اشتراها من أحد الحجاج ، وكان اسمها « الحاجة فاطمة » وكانت آية في الجمال ، وقد اختلط الأبيض والأحمر فى حرير

ريشها ، ونظرا لحياتها البدوية وسكنى الخيام تعودت الحاجة فاطمة على الحذر واليقظة والصياح عند أقل حركة ولما ملأت سراى القبة صياحا احضرتها الى سراى مسترد ، حيث افردت لها غرفة مستقلة ، وكانت حينما تطير فى الصالة يضع الخدم فوق رءوسهم مظلات حمراء عند اختراق الصالة، وذلك لأنه كان من عادة الحاجة فاطمة أن تقع على رأس الانسان وتحاول ان تكشف بمنقارها عما تحت الجمجمة ، وكانت هى الطائر الوحيد الذى لم يخضع لارادة الخديوى ، بينما كانت جميع الحيوانات تخضع للخديوى بمجرد النظر ، كانت هذه الببغاء تثور وتصيح عند رؤيته ، ولعل السبب فى ذلك راجع الى لون طربوشه الأحمر الفاتح ولما كان طربوش السلطان أغمق لونا وكان عظمته يحب الطيور ، فان الحاجة فاطمة سافرت على ظهر المحروسة لتكمل مجموعة السلطان عبد الحميد وتملأ يلدز بصياحها .

وفى الواقع كان خضوع الحيوانات للخديوى مدهشا، حتى كنت استعمل مختلف الطرق واستغرق الوقت الطويل لكى أروض الحيوان الذى كان الخديوى يخضعه بنظراته فقط ، فالجواد الذى يستعصى ركوبه كان يسلس قياده للخديوى ، وكان الكلب « أورسى » اذا رأى سجادة الصلاة مفروشة فانه يسير بخضوع حولها فى قدس كبير ، وكان الخديوى يقول لى « ان الكلاب تضحك منك يا عزيزتى ... » فلم أكن اتألم لهذه الكلمة فانه لا يسيئنى ان تضحك منى الحيوانات ، ومع ذلك فان « أورسى » عندما لدغته عقرب فى موضع حساس من جسمه ، وقطع الطبيب الأمل فى شفائه جاءوا به الى

مستترد فما زلت به حتى شفى ، ولست أعتقد انه كان يضحك منى فى هذه المرة .

***

لم نكن لعباس الثانى أصدقاء بمعنى الكلمة . فرفاق الصبا أصبحوا باورانا أو تشريفاتية فقط وأما صداقة الماضى فلا ذكر لها ، وعلى العموم فان التاج يفصل بين الملوك وبين الماضى ، والحكام يعيشون دائما فى دائرة منعزلة . فلا هم بقادرين على النزول عن مستواهم ولا أفراد الشعب بقادرين على النظر اليهم الا باعتبار انهم حكام . ومنذ عرفت عباس الثانى وددت ان أكون رجلا لكى أصبح صديقا نخلص له باعتباره صديقا لا سيدا ، بيد اننى لو كنت رجلا لما استطعت التعرف به .

انى لأرى من نافذة الكشك شخصا يلتقط الزهور بعطف وحنان ينمان عن عاطفة رقيقة ، وهذا الرجل طويل القامة عريض المنكبين قوى العضلات يدل انطباق شفتيه الشديد على عزيمة حديدية .

هذا الرجل هو فخر الدين ، وهو منذ سنين الخادم الامين للخديوى ، الذى يضحى بحياته ألف مرة فى سبيل سيده . ولهذا الرجل قصة غريبة ، فقد كان حديث الناس فى قوله ، وكان معروفا بانه أقوى رجل فى هذه المدينة ، فكان الكل يخشون بأسه ويتجنبون الاحتكاك به ، على انه الى جانب ذلك كان مشهورا بالصدق والوفاء بالوعد ، فكانت كلمة واحدة منه تقوم مقام الف قسم من غيره ، وكان يعيش مع زوجته وأولاده من قطعة أرض يزرعها بنفسه ، وكان يجيد الرماية

لدرجة انه يستطيع ان يصيب طائرا فى الجو وان يعين موضع الاصابة .

وحدث أن فخر الدين هذا كان جالسا فى قهوة يعزف فيها موسيقيان ـ رجل وفتاة ـ وكانت الفتاة قد أعجبت فخر الدين ، والأمر ما أهان الموسيقى زميلته الفتاة ، فلم يرق هذا فى عين فخر الدين فتقدم الى الرجل وقال له : « انك تستحق الموت من أجل هذه الاهانة ، ولكنى سامنحك فرصة تحاول فيها خلاص نفسك ، فان استطعت أن تعزف على ظهر الكمنجة لحنا تسمعه اذناى فانت ناج ، والا فالموت لك » .

ولم يستطع أحد أن يتدخل بين الرجلين ، ووقف فخر الدين والمسدس فى يده ، وكان طبيعيا ان الخشب لا يعطى لحنا ، وفى الحال خرجت الرصاصة من المسدس فأصابت ما بين عينى الرجل ، وذهب فخر الدين الى بيته وجاء وراءه البوليس يريد القبض عليه ، ولكنه أبى أن يخرج مقبوضا عليه ، وقال لرجال البوليس : « اذهبوا وسأحضر بنفسى .. » .

ولما كان رجال البوليس يعرفون ان الرجل لا يكذب فانهم تركوه ، وفعلا ذهب الرجل بنفسه الى قسم البوليس ، فلما فتحوا له باب السجن نظر اليهم بسخرية وقال : « لقد وعدتكم بأن أسلم نفسى وها قد فعلت ، ولكنى أقسم لكم انى لن أمكث طويلا فى هذا السجن » .

وظن القوم أن فخر الدين سيحنث بيمينه الاول مرة ، ولكن لم يحن المساء حتى كان فخر الدين يقترب من يخت المحروسة فى قارب صغير ، فوثق به الخديوى لأول نظرة ، ومنذ ذلك الحين أصبح فخر الدين خادما

أمينا وتابعا مخلصا وحارسا خاصا للخديوى ، وكلما رست المحروسة فى ميناء قولة كانت عائلة فخر الدين تأتى اليه على ظهر اليخت وتقيم معه بأمر الخديوى حتى يوم الرحيل ، وفى هذه الاثنـــاء يقف البوليس على الشاطىء فى انتظار الرجل .

وفى هذا العام كنا قد قررنا عدم الذهاب الى قولة ، فمن يدرى لماذا كان هذا الرجل يقطف الزهور بهـــذا الحنان ؟

الا يمكن ان يكون مشتاقا لزوجته واولاده ؟ لئن كان شوق هذا الرجل يساوى قوته ، فما كان اشد بأسه !!

ليست عندى صورة واحدة تروقنى عن نفسى رغم كثرة الصور التى عندى فانها جميعا تظهر وجهى كوجه الاطفال . واظن ذلك راجعا الى أن المصورين لا يجيدون التصوير لأنهم يتخذونه مهنة لا فنا ، ولعل أجمل صورة كان يمكن أن تمثلنى على حقيقتى هى التى حاول أحـد الأجانب التقاطها فتنبه اليه البوليس وصادر آلة الكوداك التى كانت معه . وانى لا ازال اذكر هذا الأجنبى الى الآن ، ولا انسى صورته ، فقد كان نحيلا بارز عظـام الوجه ، ساطع العينين جدا . مفرطا فى الطول ولولا غرابة منظره هذا لما تنبهت اليه ولا لاحظت انه يحاول التقاط صورتى .

كان ذلك اثناء حفلة المحمل فى ســاحة القلعة ، حيث ازدحمت الجماهير من كل الأجناس واصطفت الجنود فى الساحة وخصص مكان لنساء الوزراء والهيئـات السياسية يفصله عن الجماهير كردون العساكر ، ولمـا تـكامل عقد الجمع جاء الخديوى فى عربة تجرها أربعة من الجياد الصافنات ، ووقف على المكان المخصص له

ومن حوله الوزراء ورجال الدين ومشايخ الطـــــرق ثم جاء الجمل الذى يحمل كسوة الكعبة الشريفة يقوده احد المشايخ ، فلما حاذى الخـــديوى سلمه الشيخ طرف الكسوة فقبلها ووضعها على جبهته ثم أخذ بزمام الجمل وسلمه الى امير الحج .

وفى هذه اللحظة ازاحت النساء نقـــابهن واطللن من العربات وكانت الموسيقى تصدح والنقـــود توزع على الجماهير ، فشعرت بنظر ذلك الأجنبى متجها الى ، وقد اقترب من المكان المحجوز وتخطى الكردون وكان فى لباس الضباط الانجليز . وبعد ان التقط الصورة قفل راجعا ولكن احـــد الضباط المصريين تنبه فاخـــذ منه آلة الـكوداك .

ويظهر ان هذه الحادثة لم تفت عين الخديوى ، فانى لم اكد اصل الى السراى حتى رايت آلة الـكوداك على المكتب فجعلت امنى نفسى بصورة جميلة ، ولكن يا لضيعة الأمل ، لقد كانت صورة مشوهة لا تفترق عن اية صورة عادية لامرأة رفعت نقابها ، فكانت لا تساوى ما لاقاه الضابط من التوبيخ على فعلته وفوق ذلك ضياع الآلة الفوتوغرافية منه ، وعندما أعود الى القـــاهرة سوف اطلب احد المصـــورين الى سراى مسترد لأخذ صورة تروقنى وربما فضلت أن تؤخذ صورتى وانا أعزف على البيانو .

زيارات الخديوى لأوربا

كان الخديوى سريع الحركة لا يكل العمل ولا يمله ، وكثيرا ما كان العمل يمنعه من تناول الطعام فى مواعيده، وكان فى أوروبا يميل الى الأماكن المزدحمة بالناس ، ولعل ذلك ناشىء من حياة العزلة التى يحياها فى مصر ، حيث لا يخرج الا فى حرسه ، ويقف كردون العساكر بينه وبين الجمهور .

وكنا قبل البدء فى الرحلة نضع برنامجا دقيقا عن البلدان التى سنزورها ومدة الاقامة فيها والأعمال التى تقوم بها ، ولكن هذا البرنامج كان لا ينفذ الا على الورق ، وكانت الحقيقة دائما تخالف التصميم ، وكانت الأعمال تزيد بكثير على المقرر ، وكانت باريس ميدان الحركة الدائمة فلا تكاد تمضى بضعة أيام على وجودنا فيها حتى تزدحم الغرف بالمشتريات التى كنا ننتقيها بانفسنا ، فكنا طول النهار ننتقل من متجر الى متجر لا نستريح الا لتناول الطعام ، فاذا حان المساء وعدنا متعبين الى الفندق وجدنا الصالون مزدحما بالمنتظرين من زوار وموردين بفواتير الحساب ورجال المعية بالمكاتبات ، فكان ينهى كل هذه الأمور بسرعة شديدة

ثم يرتدى بدلة السهرة وندهب الى بعض الملاهى حيث كان يسر سرور الأطفال ،وبعد ذلك ننتقل الى ملهى « فورا » وهو أكبر ملاهى باريس وأكثرها ازدحاما ، فكان الخديوى يتأبط ذراعى ثم نندفع فى تيار الازدحام، وكنا نقف عند كل لعبة حتى يلتصق الفستان بجسمى من شدة العرق ولكى يجف العرق كنت اقف عند لعبه البيضاء العائمة حيث أخسر بضع مئات من الفرنكات .

وحدث مرة اننا تشاحنا تشاحن الأطفال وسط الملهى، وذلك أن الجهد كان قد نال منا وأصبحت قدماى غير قادرتين على حملى وتصبب العرق من جسمى ، وكانت السيارة تنتظرنا فى الخارج ، ولكنى لم أستطع قطع المسافة اليها ، فكان على الخديوى أن يذهب ويحضر السيارة فلما عاد وجدنى راكبة فى « المرجيحة » وقد أعجبنى الهواء البارد الناشىء من دوران « المرجيحة » فجلست فيها لمدة أشواط ولم يكن معى نقود اطلاقا ، فكان الخديوى يدفع أجرة الأشواط وهو حانق ، واخيرا ركبنا السيارة ونحن غاضبان ، ولكننا لم نكد نصل الى الفندق حتى كان السرور قد عاد الينا .

وكان الخديوى يحب زيارة الأسواق والمعارض ودراسة الآلات وخصوصا القاطرات وكان يسوق القطار بمهارة فائقة ، وعندما زرنا لندن كان فى انتظارنا فى ووفر بعض المهندسين الانجليز ، وكانوا يعلمون ان الخديوى يسوق قطاره بنفسه ، ولهذا دعوه الى الاشتراك معهم فساق القطار من ووفر الى لندن ، وبالرغم من انه كان يلبس معطفا ونظارة فانه لم يسلم من سواد الفحم ، فلما نزل فى محطة لندن كان منظره موضع دهشة واستغراب من جميع مستقبليه .

ولم تكن حياتنا فى المصائف بأهدأ منها فى باريس فانها وان كانت تخلو من حركة المشتريات وكثره السهرات الا انها حافلة بتعاليم الاستشفاء وأوامر الأطبـاء وكان الخديوى يستشفى غالبا فى « ديتور » بالقـرب من جنيف ، وقد كان ذهاب الخديوى الى هذا المصيف سببا فى شهرته ، فكان يتوافد عليه الناس للاستشفاء ولرؤية الخديوى وكنت ارى كثيرا من المصريين ممن لا يستطيعون مقابلة الخديوى فى مصر يحومون حول « الفيللا » التى نسكنها .

وكان الخديوى ينفذ أوامر الأطباء بدقة تخلصا من الشحم الذى كان قد بدأ يظهر على جسمه ، وبعد الانتهاء من الاستشفاء هنا كنا نزور عدة مصايف اخرى ، وحدث فى « اكس ليبان » انى ـ بعد العشاء ـ أردت الدخول الى صالات اللعب ، وكان الخديوى لا يلعب أبدا ، لأنه كان يبغض المال المكسوب بلا تعب ، كما يكره أن يخسر المال بلا مبرر .

وفى صالة اللعب اتجهت كل الأنظار نحوى لا لأن حظى كان عاليا فى اللعب ، بل لأن مجوهراتى وملابسى اخذت بالابصار . واحمر وجه الخديوى وبدت عليه «العصبية» ولست ادرى سببا لذلك . فانه لم يكن من المعقول ان اقامر بجواهرى أو فستانى . واستقر رأى الخـديوى على أن أعود الى الفندق فأنزع الحلى واغير الملابس ، ولم يجد فى الاجتماع شيئا ، وعدت الى الفندق . ولما رجعت الى الصالة فى زى بسيط لم يلتفت الى احد وضاعت بذلك بهجة الليلة .

العلاقات الخاصة بين الخديوى وأمراء العائلة المالكة

وفى فيشى رأينا أرملتى اسماعيل باشا جالستين فى شرفة الفندق وعلى وجهيهما النقاب الأبيض وهما تدخنان وتستمعان الى نغمات الموسيقى .

كان لاسماعيل باشا أربع زوجات . وعلى عكس المألوف كانت هؤلاء الزوجات صديقات لا شحناء بينهن ولا بغضاء ، وقد ألف بينهن حبهن لرجل واحد .. هو اسماعيل .

كان اسماعيل قوى الشخصية ، شديد العزم . فاستطاع بذلك أن يجعل من أربع « ضرائر » أربع صديقات . بل استطاع أكثر من هذا فضم اليهن صديقة خامسة ، وهى امرأة تدله اسماعيل فى حبها .

كان اسماعيل اذا أحب لم يترك لمحب بعده مجالا . واذا أهدى أغدق حتى أغرق ، واذا أراد البناء فانه يهدم حيا بأكمله ليشيد عليه ما يريد ويستعمل ٢٠٠٠ الأيدى فى البناء يعملون على ضوء الشمس نهارا وتد لهم المشاعل ليلا . وعلى هذا المنوال قامت سراى الجز التى بناها خصيصا للأمبراطورة أوجينى لتكون لها م أثناء زيارتها لمصر . ولو استطاع لأحال مصر كلها روضة غناء تخطر فيها هذه الملكة الجميلة .

ولما ابدت الامبراطورة رغبتها فى الطواف بالقاهرة على ظهر حمار رافقها الخديوى فى هذا الطواف ، ولما رجعنا من النزهة كان حريم اسماعيل على استعداد لاستقبال الامبراطورة ولم تشعر احداهن بغيرة أو حسد .

واثناء حكم عباس الثانى ، بعد موت اسماعيل باشا وتوفيق باشا . كانت هناك امراة كهلة فى ملابس سوداء تزور مصر سنويا وتبدأ مقامها فى القاهره بزيارة ارامل اسماعيل .

هذه المراة الكهلة كانت « أوجينى » امبراطورة فرنسا السابقة .

وقد احتفظت ارامل اسماعيل بعاداتهن حتى فى أوروبا، فكن دائما مقنعات ويأخذن الجوارى والأغوات معهن ، فاذا ركبن عربة جلس الأغا دائما الى جانب السائق .

وكان اسماعيل باشا يحب حفيده عباس حلمى حبا شديدا ويعطف عليه العطف كله ، ويوجد فى قصر القبة دولاب مقفل يحتوى على الأسلحة والهدايا التى يأخذها عباس من جده . ولما فتح الخديوى عباس هذا الدولاب وأرانى نفائس محتوياته أعطانى علبة كبريت ذهبية قال انها كانت هدية من الامبراطورة أوجينى الى جده . ولا تزال هذه العلبة امامى الآن . وعليها « مونجرام » ذلك الحاكم الكبير الذى كان يعرف معنى الحب .

ربما أسفت على أن رمضان ليس الا ثلاثين يوما ، وذلك لانى تعودت فيه الجلوس الى مكتبى وتدوين مذكراتى . وهذا مالا أستطيعه فى مسترد فهناك البيانو يغرينى بالعزف عليه ، ثم اننى هنا أشعر بالحرية أكثر من هناك ولا أخشى العيون على ما اكتب .

زوجة الخديوى السابق

لو كنت باشا ! ..

لو كنت باشا لتركت جميع الجـــوارى فى قصرى عذارى حتى تنتهى حياتهن التعيسة ، ولا أفهم مطلقـا كيف أن رجلا يملك قليلا من حسن الاختيار ورقـــة الذوق يستطيع الاعتـــداء على هـذه المخلوقات الذليلة المسكينة ، واذا فرضنا ان الشهوة الجسمانية المجردة لا ينقصها كثير من الشـــوق ، فان الشخص المحبوب يجب أن يفضـــل على آخر لا يرضى من الانسـان الا الحواس فقط . واذا فرضنا أن المرأة المحبوبة أرادت ان تكون ذات سلطان على عواطفها ، فلا أقل من انهـا تجاذب الرجل عاطفة حبه . وحسبه هذا حتى لا يشعر باختلاف درجة العواطف اذ نبالغ عادة فى تقـــدير عواطفنا الذاتية وفى التمتع بها ولو بدت لنا من طريق غير مباشر كما هى الحال فى الحب الذى يرد الينا ، ولكن العواطف يسهل فيها الخـــداع والتمويه . أما الحاجيات المادية فلا ـــ ولو كنت باشا لاتبعت ذوق اسلافى ولما رضيت الاســـتمتاع بأشباه النساء التى يتوارثهن الأقرباء بعضهم عن بعض من واللاتى ينظر اليهن كمتاع جامد لا حياة فيه .

ليست شهواتي من المسائل التافهة حتى اعمل على تسكينها بأساليب سبقني اليها غيرى . ويكاد يمليهـــا على املاء ولو كان هذا الغير من أهلى واقرب الناس الى ، كذلك يستحيل على ان أرضى بأن ينشأ نسلى وتشب ذريتى بين احضان ساقتها الى الصدف ، فان الفرس القوى يجب أن يزرع فى ارض حرة .

لا استطيع أن أفهم كيف تنازل ســلاطين آل عثمان جميعهم عن الحرص على صفاء دمائهم واختـــاروا غير الراشدات امهات لأولياء عهودهم وفلذات أكبـادهم ، فليست هناك سلالة اختلطت بالدماء العربية مثـــــل العثمانيين ، اذ أمهات سلاطينهم جميعا من الشركسيات أو الكرديات او الروميات أو البلغـاريات أو الأرمنيات دون التركيات . وفى مصر يكثر انتخاب الزوجات من الجوارى ، فان المطالب التى تطلبها الجارية ورغباتهـــا فى الغالب تافهة قليلة اذ انهـــا بطبيعتها جبلت على الرضا . فهى ترضع لأمر سيدها ، ولو لم تكن حرية المرأة من المســـائل الطبيعية المألوفة لديهم فقد كانوا يقدرون المرأة الحرة قدرها ، وكان كل باشا يعرف جيدا أن المرأة المولودة من ابوين نبيلين لا تعد نفسها مساوية له . ولا يسمح له بالنظر اليها نظرته الى الجارية ، ولذلك انصرفت رغبة رجال الطبقة الارســـــتقراطية للاقتران بالجوارى .

وبينما يمتاز حريم السلاطين فى الآستانة بما ورثنه عن بيزنطة من مظاهر الأبهة والعظمة ، فان الحـــريم المصرى الذى ينتمى الى أصل تركى لا يظهر عليه شيء من مجد الفراعنة .

وكثيرا ما أفكر فيما عسى أن يحدث لو ان الرجال

عرفوا ما تعرفه المرأة عن بنات جنسها ؟؟

لا شك اننا لم تكن نرى للحريم اثرا ، اذ يعرف الرجل انه دائما مخدوع وانه وحده تقع عليه المسئولية فى فقر عاطفته وشعوره دون أن يحصل على شيء من الشهوات المادية يعادل هذا الفقر بل هو قد خسر الملذات كلهـــا لأن الشهوة الجسمانية تحتاج ايضا الى العنـــــــاية والقيمة .

انها تتطلب ضحايا كثيرة لتستطيع ان تحتفظ ببقائها اذ تعيش من الرغبات التى تتمناها والآمال التى تحـوم حولها ، فهى تستعين بـكل ما تصـــادفه من حرارة ، وما يلقاها من شرر متطاير ، تتلقف الأنفـــام والألوان والروائح وتنفمس فى قرارات القلوب والأرواح . وتبحث فى نواحيها حتى تجد شوقا هائما تقدم له نارها وقودا، كل ذلك ونبضات القلب اشد ما تكون يقظـة وانتباها وبقاء ، واذا ما جمعت هذه العنـــاصر المختلفة الألوان والأشكال نشرتها كمـــا ينشر رداء ارجوانى بهيج اللون وتقدمت به هدية ومتعة الى من ينال الفوز والحظـوة لديها ، ولو كنت باشا ما رضيت غير هذه الشهوة ، ولكن هذا النوع من الحسية المليئة بالحياة النضرة ، لا سبيل لتمويهه فى محيط الحريم الخـــانق ، ومن المدهش ان التى خلقت لتكون متعة أصبحت وسيلة للقضاء على مزايا المرأة التى لا تستطيع أن تستعد بغير تنميتها .

ان منع المرأة من الاختلاط والسهر عليها بل وتقييدها ايضا لا يحط من كرامتها ولا يقضى على حرمتها ، لأن الحرص والغيرة التى يظهرها الرجل فى ذلك تثبت لها حبه ، لقد تغلغل الفساد فى الحريم الشرقى من جميع النواحى ، وهو فى وسط لا يمكن أن يساعد على تربية

الأطفال لما يعيش فيه من جراثيم ، أما الحب فقد مسحه الجوارى واتخذن منه آلة يستخدمنها لتحقيق مطامعهن، بينما أصبحت الأمومة واســـطة لوقاية النفس من شر الضرائر .

ربما لا أستعيد قراءة هذه المذكرات بعد الآن ، فانى بطبعى لا اقرأ الشىء مرتين حتى خطابات الخديوى التى كان يرسلها الى لا أعيد قراءتها ، وقد وصل الى فى احد الأيام خطاب خشن من الخديوى ، وكان هو فى سراى عابدين وكنت أنا فى سراى مسترد اتهيأ للذهاب الى عابدين لتناول الغداء معه وكان السبب فى ارسال هذا الخطاب الخشن هو انه يلفه ــ خطأ كالعادة طبعا ــ انى دعوت بعض السيدات ولكنى لم اكن قد نفذت هذا العزم بعد ، وكانت نتيجة هذا الخطاب ان حفلة الشاى الغيت .

وانقى لا ازال أذكر نظرتك بطرف عينك الى منفضة السجائر لتعرف ماذا كنت أدخن فى رمضان ولكنى أعلم انه ان لم يكن لى وازع من ضـــميرى فانى لا أخشاك واجاهر بالتدخين أمامك .

لقد فرقت بيننا الأيام الآن ، ومشى بيننا الــدهر ، ولكنى على يقين من أن روحينا ما زالتا على اتصال فانك تشغل جزءا من نفسى كما أشغل جزءا من نفسك يحيا بذكراى ، فاذا مت أنا فسيموت معى من نفسك ذلك الجزء الذى كنت أشغله .

منشأ الحريم وتطوره

كلمة (حريم) التركية مصدرها عربى ، والفعل منها (حرم) ومعناه الممنوع غير الجائز كما أن فيه معنى القداسة ، فالكعبة حرم ومكان مقدس لا يجوز انتهاك حرمته ، والذى يلجأ الى الكعبة يصبح آمنا فلا يجوز قتله ولا مطاردته ، وفى موسم الحج لا يجوز قتل أى كائن حتى فى الدائرة الحرام .

على انه لا توجد كلمة أسيء استعمالها بقدر ما أسيء استعمال كلمة (حريم) بعد أن أطلقت على القسم المخصص لسكن النساء فى البيوت واصبح النساء فيه سجينات يقوم على حراستهن أغوات لا يصدعون الا بأوامر أسيادهم الذين له مطلق التصرف فى هذا السرب من السجينات ويدعى هؤلاء الأسياد انهم يحافظون على النساء بهذه الصورة ويمنعون عنهم يد الفريب ، ولكن الواقع هو ان المرأة لم تكن فى حياتها أضيع منها وهى بين جدران الحريم حيث تمتهن كرامتها وتضيع حقوقها التى نص عليها الدين الاسلامى ، فقد كانت النساء فى عهد النبى (صلعم) متساويات فى الحقوق مع الرجال يفشين المجالس ويحضرن المجتمعات ويشتركن معهم فى الصلاة ، ولم تكن الصلاة فى ذلك الوقت على

ناعم الأبسطة وفاخر السجاجيد ، وانما كانت على الرمل والتراب وذلك لأن نعومة الأبسطة قد تجعـــل الانسان ينصرف عن خشوعه فى الصلاة ، ونص الحديث على تحريم الذهب والحرير على الرجال ، ولكن علماء الدين فى العهد الأخير أغمضوا عيونهم عن هذا الحديث وراحوا يلبسون الحرير الوانا ويتحلون بالذهب جهارا .

ولم يأمر النبى (صلعم) بالفصـــــل بين الرجال والنساء الا عندما جاءه وفد من النساء يشكو من اثرة الرجال وجلوسهم فى الصفوف الأمامية فى مجلس النبى بحيث كان يتعذر على النســـاء السؤال والمناقشة فأمر النبى بأن يكون للنساء مجلس خاص فى يومى الاثنين والثلاثاء يشرح لهن فيه ما صعب عليهن ادراكه ومناقشته فى كل مسألة لكى يكن فى ايمانهن على هدى ، والدين الاسلامى قائم على العقل والادراك ، فهو لم يعرض شيئا لا تقبله العقول .

ويبيح الاسلام للرجـــل المتزوج من اربع نساء عدا ما ملكت يمينه من الجوارى أن يسوى بين الأطفال ، فأين الجارية له نفس الحقوق التى يتمتع بها ابن السيدة ، ولم يحرم الاسلام زواج الرجل من غير المسلمة ، ولكنه جعل الولد تابعا لأبيه اذا حصل على الطلاق .

وكان للمراة نفس حقوق الرجل فى طلب الطلاق اذا توافرت أسبابه ، ومن هـذه الأسباب مرض لا يرجى شفاؤه ، أو نقص فى الرجولة ، أو خيانة الزوجية ، أو منع حقوق الزوجة ، أو القربة لهم أو عدم وجود التوافق بين الزوجين ، وزادت المراة على الرجل حقا فى طلب الطلاق وهو أن الزوج لا يســـتطيع الانفاق عليها .

وقد سلبت من المراة كل هذه الحقوق فلم يعد فى امكانها طلب الطلاق ولو كان زوجها أقل النـــاس عملا بأوامر اسلام .

وتدلنا القصة الآتية على أن النبى أجاز الطلاق اذا لم يكن هناك وفاق بين الزوجين وهو انه (صلى الله عليه وسلم) رأى (مغيثا) يسير وراء زوجته (بريرة) وهى تعرض عن حديثه ولا تعيره التفاتا فأرسل فى طلب الزوجين ونصح الزوجة بأن تبقى تحت طوع بعلهـــا ، ولكنها أجابه بأنها لا تحبه ولا تطيق الصبر على معاشرته فقال لمغيث انه من العبث أن يمسك انسان زوجة لا تبادله الحب ولا تريد معاشرته ، ثم طلقهما .

وقد أعطى الدين للمراة حق التصرف فى جسمها فلا تمنحه الا لمن تريد ولا تتزوج مكرهة ، وسواء فى ذلك الحرة أو الجارية .

كل هذه التعاليم القديمة التى نص عليها الاسلام لعبت بها يد الدين لا ذمة لهم ولا ضمير ، وأصبحوا لا يخشون الله انما يبتغون مرضاة أسيادهم وملوكهم الدين يمنحونهم المال والحياة ، فأخذوا يفسرون أوامر الدين وفق الاهواء والاغراض ، فوضعوا قواعـــد هى خليط من ممنوع وحرام ، ولا اتصال بينها وبين قواعد الدين الاصلية ، فالدين لم يقض بغطاء الرأس والوجه واخفاء الشعر ، وانما جعل ذلك بعض السلاطين غيرة منهم على النساء ، والدين لم يأمر النساء الا بستر أجسامهن لانهن كن — فى عهد النبى — يسرن بصدور مكشوفة وملابس لاتغطى كل أجسامهن ، ولو أن عادة غطاء الرأس كانت معروفة أو جاء بها الاسلام لما استطاع النبى أن يرى زينب زوجة زيد وهى تمشط شعرها فأحبها ، وقد ذكر ذلك فى

القرآن « تخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ولما جاءه زيد يحدثه فى طلاق زينب قال له « امسك عليك زوجك واتق الله » فلما طلقها زيد تزوجها النبى .

وكان النبى هو الوحيد الذى يعلم الناس دينهم الا اذا حال بينه وبين ذلك مرض أو عاق عائق فانه كان يرسل من ينوب عنه ، وبعد وفاة النبى كان العلماء يعلمون الناس ولا يتناولون عن ذلك أجرا أو يأخذون مرتبا ، وظل هكذا حتى عهد معاوية ، ففرض الأجور للعلماء وأجرى لهم المرتبات فأصبحوا خاضعين وينتهون بنهيه ويغمضون العين عن مساوئه ويعبثون فى الدين ما سولت لهم نفوسهم ابتغاء مرضاة السلطان .

حرم الاسلام قتل الاطفال واجهاض النساء وكان العرب يفعلون ذلك خوف الفقر فنهاهم الاسلام عنه ، لكن هذا النهى الصريح لم يجد منفذا الى جدران الحريم وليس الدافع للقتل هو الفقر ، كما كان عند العرب ، بل الاثرة والطمع وحب الملك والغيرة ، وأمعن بعض السلاطين فى الضلالة فسنوا قانون قتل الأخ محافظة على الملك .

فبأى حق بعد هذا تسمى تلك الدور حريما تشبيها بالكعبة والبيت الحرام ؟ ولو أنصفوا لسموها « بيوت الشرور » ولو اطلع النبى الآن على ما يسمونه «حريما» وما افتراه السلاطين والعلماء على الاسلام لأنكرهم جميعا وبرأ الاسلام منهم .

تولى الخلفاء الراشدون شئون الاسلام من بعد النبى فساروا على منهجه وتبعوا خطاه ، وبالرغم من توسع الأملاك وكثرة المال فان هؤلاء الخلفاء ظلوا يعيشون عيشة بسيطة لا يختلفون فيها عن سائر افراد الشعب .

ولما آل الأمر الى معاوية اتخذ دمشق عاصمة لملكه وبنى قصر الخضراء وخصص فيه جناحا لسكنى النساء ، فكان هذا أول حجر وضع فى بناء الحريم .

وجاء من بعده ابنه يزيد فكان همه اللهو والنساء ، وكان أول خليفة شرب الخمر جهارا واكثر من شراء الجوارى وبناء القصور لهن ليتمتع بهن وحده ، وانتهى عهد الفتوحات الاسلامية واشتغل الخلفاء باللهو وتعلقوا بالحب ، فكان كل منهم يبز الثانى فى اقتناء الجوارى والراقصات ولا يعنيه من شئون الدولة الا أن تكون لذته موفورة وجواريه حاضرة ، فاذا سمع بجارية لا يدخر وسعا فى سبيل الحصول عليها ولا يقتصد فى الثمن .

ولما آل الملك الى العباسيين وكثر الطلب على الجوارى ارتفع ثمنهن حتى بلغ ثمن الجارية مائة الف درهم كان الخليفة يدفعها عن طيب خاطر ليرضى لذته ويطفىء شهوته ، وملأ الأعين نهر الدجلة بالسفن يخالها الناظر اسطولا ، ولم تكن الا مسكنا للراقصات والمغنيات والجوارى من بيض وسود وامتلأت القصور بالاغوات والغلمان ، وكانت كل جارية تسعى لامتلاك قلب الخليفة فحصل التنافس ثم الغيرة فالقتل بالسم أو الخنجر واصبح الحكم كله فى يد النساء والموالى ، فلما تقلب

هو لاكراه ملك التتار على دولة العباسيين فى خـلافة المعتصم جلس ذلك الخليفة فى قصره ينتظر دخول الفاتح ولم يجد طريقا للدفاع عن نفسه الا أن يملأ الأوانى باللآلىء والجواهر ليقدمها للملك المفـــير وفى ظنه أن هولاكو تبهره هذه النفائس ، ولكن خاب فأله ، فان ملك التتار وزع الجواهر على رجال جيشه ، ثم أخذ الخليفة ونساءه ، وكان عددهن نحو الخمسمائة الى معسكره ، وهناك أمر بوضع الخليفة فى حقيبة من الجلد وان يغرق فى نهر دجلة بعد أن يطاف به شوارع بغداد .

الحريم عند سلاطين آل عثمان

ان الباحث المتعمق فى أعمال السلاطين العثمانيين لا يرى فى أعمالهم أظهر من الخنق والشنق والتسميم والاغراق والحبس ، فقد كانوا يعتقدون ان هذه الاسس تمهد للسلطة وتوطد مركز الخليفة لأنها تبعد المنافسين من الطريق وكانت أنجح الطرق للتخلص من المزاحمين .

وليت شعرى كيف كانت المراة تصبر على آلام الحمل وهى تعلم أن طفلها سيقتل عقب الولادة ؟ ولست أدرى بأى عاطفة كانت تتقدم المرأة الى السلطان تبادله القبلات وتنافس غيرها فى حبه وهى لا تملك من أمرها سوى الساعة التى تحيا فيها ، وربما لا تطلع عليها شمس الغد حتى تكون غريقة فى البسفور ، وأغلب ظنى ان ذلك الزمن انفرد بصنف مخصوص من النساء لا يرين ولا يسمعن ولا يشعرن .

كان السلطان بايزيد الأول هو أول من وضع مبدأ قتل الأخ ، وجرى السلاطين من بعده على هذه السنة بحكم العادة حتى جاء السلطان محمد الثانى فجعل قتل الأخ قانونا من قوانين الملك وركنا من أركان حفلة التتويج ففى اليوم الذى يتولى فيه السلطان يقتل سائر اخوته، ومن عجب ان هذه الجريمة تستند الى افتاء المفتى الذى

يأبى الا ان يفترى على القرآن ويستوحى منه فتواه فيقول ان حياة هؤلاء الاخوة قد تؤدى الى الفتنة ، ويقول القرآن « الفتنة اشد من القتل » .

ولم يكتف السلاطين بقتل الأخوة ، بل كانوا يقتلون ابناء بناتهم وابناء اخواتهم ، فاذا ولدت ابنة السلطان او اخته مولودا ذكرا يقتل فى الحال ، وما نجا رجل من هذا القتل الا اذا ساعدته ظروف قوية على الاختفاء او الهرب او شاء القدر ان يكون هو النجل الوحيد للسلطان ، وكثيرا ما كان السلاطين لا ينتظرون حتى تضع المراة حملها بل يعجلون بها الى البسفور اقتصادا للوقت والمجهود ، وظل قانون قتل الأخ قائما حوالى اربعمائة سنة ، حتى جاء السلطان عبد المجيد فالغى هذا القانون وصار الاخوة لا يقتلون ولكن يحيون .

واتسع ملك العثمانيين وآلت اليهم الخلافة فاصبحوا يلقبون « بظل الله على الأرض » فتوسعوا فى اقتناء الجوارى والغلمان من شركسيين ومجريين ويونانيين وبلغاريين والبانيين ، فمن نال منهم حظوة عند السلطان رقى الى أعلى المناصب حتى أن بعضهم انعم عليه بلقب الامارة وكانت الحظوة لا تنال بذكاء العقول ولكن بجمال الأجسام .

راى سليمان الأول ، وكان فى ذلك الوقت وليا للعهد، فتى يونانيا يساعد اباه ، وكان بحارا ، فاعجبه الفتى وراقه منه انه كان يجيد العزف على الكمنجة ، فاصطحب الفتى وقربه اليه ، فكان لا يجلس فى مجلس الا والفتى الى جانبه ، فلما آل اليه الحكم رفع من شان هذا الفتى وعرفه التاريخ تحت اسم ابراهيم باشا ، فكان يركب الى جانب السلطان فى الغزوات والفتوح ،

ويستقبل معه رسل المماليك ، ويدير معه شئون الدولة واصبح وزيره الأكبر . ومع أن ابراهيم باشا كان مخلصا لسيده ولم يسيء استعمال سلطته فان السلطان امر بخنقه على حين فجأة ، والواقع ان ابراهيم باشا لم يقتل الا بدسيسة امراة .

ففى الوقت الذى علا فيه شأن ابراهيم فى الخارج علا فيه أيضا شان جارية فى الحريم ، وكانت تدعى « روكسلان » وكانت آية فى الجمال وساءها ان يشاركها احد فى الاستئثار بالسلطان ، فما زالت تسعى حتى أغرت السلطان بقتل ابراهيم ، ولم يقف تاثيرها على السلطان عند هذا الحد ، بل جعلته يقتل ابنه مصطفى لأنه من امراة غيرها .

ولم يكن من السهل ادارة الحريم ، كما يجب ، فرئيسة حريم مراد الثالث كان تحت حراستها أربعون محظية ومائة طفل وخمسمائة جارية ، وفى نفس الوقت كان من واجبها أن تكون على اتصال بشئون الملك فى الخارج ومراقبة ما يجرى فى الحريم فى الداخل ، والعمل على ان تتصل احدى النساء بالحياة الخارجية ، ولكن النساء كن أمهر من ان تقف فى سبيلهن الجدران ، وثبت أن المحظية « روقية » وهى من فينيسيا كانت تراسل « كاترين دى مديسى » وكانت تحاول استغلال نفوذها لصالح بلادها .

واحتفل مراد الثالث بختان ابنه احتفالا لم يعرفه التاريخ من قبل ولا من بعد ، فأقيمت الافراح خمسة وخمسين يوما انفقت فيها الملايين وحضرها مندوبون من جميع الدول واتجهت انظار العالم الى قطعة جلد ستقطع من طفل .

أقيمت القصور الفخمة لسكنى الضيوف من ملوك وأمراء ، وهدمت احياء بأكملها ليقام فيها الاحتفال ووسعت الشوارع لمرور الموكب واقيمت السرادقات والمسارح وجيء بالممثلين والمشعوذين وارباب الألعاب من كل قطر حتى اصبحت العين لا تحصى عدد الملاهي .

وفي اليوم الأول من الاحتفال خرج السلطان في مهرجان عظيم الى السراى المعد له ثم تبعه ولى العهد ثم السلطانات ثم الحريم بأكمله يحتاط به بحر من الاغوات السود ، واقبلت وفود المهنئين من نفيس الجواهر وفاخر الحلى وانيق الثياب ، وكان المهنئون يتنافسون فى تقديم الهدايا ، فكل منهم يحاول أن يبز الثانى فى هديته .

وبعد ذلك ينصرف الجميع الى مشاهدة الملاهى فيمر الدراويش والراقصات والمغنون والخيالة وحملة الرماح والعاب الفروسية ، فاذا حان المساء جاء دور الفقراء فكانت تذبح لهم العجول والخراف مما لا عدد له ، وفى الليل تموج المدينة بالأنوار وتزدحم الشوارع بالناس ، وتسير المركبات الفخمة متنقلة من سراى الى سراى ، والناس يهللون احتفالا بظهور صبى .

وبعد أن شفى الغلام أهدى له أبوه جارية من أجمل الجوارى مكافأة له على احتمال الألم .

وتتابع سلاطين آل عثمان وكلهم سواء فى العسف والظلم حتى جاء ابراهيم الأول فكان عبدا لشهوته ، فكان مقامه فى الحريم على الوسائد الناعمة وحوله النساء والغلمان والزهور والروائح العطرية وكل ما من شأنه اثارة الشهوة ، وكان يتأنق فى ثيابه ويسرف فى التحلى بالجواهر حتى انه كان يعلق الجواهر فى لحيته ، وزين

مركبته وسروج خيله بالذهب الخالص ، وكان يطوف أحيانا مع وزرائه فى المدينة ثم لا يلبث ان يقطع الطواف ويسرع فى العودة الى الحريم ، وحدث مرة انه اثناء طوافه راى امراة كبيرة الجسم فأعجبه هذا النوع من النساء ، فأمر بأن يؤتى له بأسمن امراة فى المدينة ، وخرجت الجنـــود للبحث وجاءوا بنساء كثيرات لم يوافقهن خياله ، حتى عثروا أخيرا على أرمنية حازت رضاء السلطان فقربها اليه ، واخذ نفوذها يكبر بنسبة جسمها حتى تضاءل أمام نفوذها نفوذ السلطان ونفـــوذ المحظيات الاخريات فتآمرت المحظيات ضدها ، وبلغهـــا خبر المؤامرة فأقامت وليمة دعت اليها غريماتها ، ثم أمرت بخنقهن على المائدة ، وانفردت هى بالسلطة ، فكانت تغرى الســـلطان بقتل من تشاء وترفع من تشاء ، والسلطان لا يرد لهـــا كلمـــة لأنه كان عبـــدا لشهوته ، والويل للطبيب الذى ينصح السلطان بمراعاة صحته ، فانه يعرض نفسه لغضب لا يعرف نتيجته .

وفى عهـــد مراد الرابع علا نجم غلام جميل اسمه (حسن اغا) واحبه السلطان حبا جعله يأمر بأن تقدم له واجبات الخضوع كما تقدم للسلطان نفسه ، وان تصنع ملابسه من نفس القمـــاش الذى تصنع منه ملابس السلطان ، وان يكون جواده وجواد الســلطان متماثلين فى الشكل واللون ، وقام الكتاب والشـعراء يصوغون المديح فى حسن اغا ابتغاء مرضـــاة السلطان فسموه « الشمس المشرقة » وكان الســـلطان يسر لهذا المديح ويغدق على قائله بالعطايا .

ولكن الحريم ثارت وساءها أن تنزع منها السلطة ، ورأت النساء ان يتخلصن من هذا المنـافس ، فاتفقت أم

السلطان مع المحظيات وكبير الخصيان على الكيد لحسن اغا ، ولكن هذه المؤامرة أسفرت عن غضب السلطان على كبير الخصيان فأمر بقتله ، ولم تستطع أم السلطان أن تستبدل هذا القتل بالنفى ، وظلت « الشمس المشرقة » تشرق على الشعب دون أن يمسها سوء ، ولكن حسن اغا ابطرته النعمة ونسى انه وان كان يلبس كملابس السلطان فان منزلته ومرتبته هى بواب .

وليس من العجيب أن نرى سلاطين آل عثمان اذا جلسوا على العرش أصبحوا كالوحوش الضارية فان ذلك يرجع الى ان الواحد منهم يظل ، وهو ولى العهد ، سجينا ، فلا يغادر سجنه الا الى العرش ، وكان لولى العهد حريم خاص وسط الحريم العام ، فكان فى سجن من داخل سجن ، ولا يجوز لانسان أن يخاطبه دون اذن السلطان ، وبالرغم من أن هذه العيشة لم تكن جذلة ولا ترتاح اليها النفوس فان بعض أولياء العهود كانوا يأبون مبارحة حريمهم اذا انفتح لهم الباب لتنسم الحرية ، وذلك خوفا من أن يكون فى الأمر دسيسة من السلطان يحاول بها قتلهم وكان أغلبهم لا يغادرون حريمهم الا اذا جاءوا له بجثة السلطان الميت .

وعندما يتولى السلطان تسير حريمه لاحتلال السراى وطرد حريم السلطان الميت الى سراى قديم وقد تثور الحريم المطرودة لسلطتها الضائعة ، فيملأون الجو صراخا ويكسرن الشبابيك والأبواب ويخربن فى القصر بقدر ما يستطعن ، ولعلم السلطان بأن مدة سلطتهن لا تطول الا بقدر ما يعيش السلطان كانت احداهن اذا نالتها الحظوة أسرفت فى استعمال نفوذها لأن الوقت قصير

وكانت تدور في الحريم حرب خفيـــــة لاكتساب رضى السلطان والاستبداد بالنفوذ .

وهكذا ظلت الحريم يتعرضن في شـــــئون الدولة والنساء يحكمن من خلف الستار حتى تولى الپاديشاه عبد الحميد خان ساكن قصر يلدز .

الحـــريم فى مصـــر

لا يكاد الرجال ، وعلى الاخص الاوربيون ، يسمعون كلمة الحريم ، حتى ينصرف خيالهم الى الرقص والغناء او بركة من الماء المعطر تتواثب حولها العذارى والفتيات يسبحن ويرقصن ويغنين .

ولكن الذى وقعت عليه عين الحريم فى مصر ليس فيه شيء من هذا الخيال ، فالجوارى فيها فتيات يلبسن ملابس بسيطة نظيفة ، ولكنها غير مغرية ، فالحـريم بكليته تسيطر عليه امرأة ، وهى زوجة السيد او أمه او رئيسة الجوارى ، وفى كل هـذه الحالات تحرص صاحبة السلطان على الا تبدو الجارية ،مام سيدها جميلة فالزوجة تفعل ذلك بدافع الغيرة ، والأم حرصا على الا يتزوج ابنها من جارية ، ورئيسة الجوارى طمعا فى ان تصبح هى السيدة .

وعلى هذا فالجوارى فى مصر لسن اداة للتمتع واللهو، وانما هن خادمات ، وان كن اقل من الخادمات حقوقا ، فهن لا يتناولن اجرا على خدمتهن ، ولا يستطعن مغادرة بيت المخدوم الى بيت سواه .

وكلما علا شأن البيوت زاد عدد الجوارى فيها ، لأن التقاليد فى الحريم المصرى تقضى بألا تقوم السيدة بعمل

ما ، ولو كان في متناول اليد ، فتقديم القهوة له نظام خاص ، وحمل الملابس على البدلة له نظام خاص ، وتقديم كأس من الماء له نظام خاص ايضـــا ، ولهذا قد يرى الانسان كثيرا من الجـــواري منهمكات ولا يرى عمـــلا يؤدى ، فهناك مثلا « سفرجى كالفة » ووظيفتها الخدمة على مائدة الطعام فقط ، وهنا « قهوجى كالفة » وعملها تقديم القهوة فقط ، وهنا « شمورجى كالفة » ووظيفتها تحضير الملابس للسيد ، وعملها ينحصر بين الحمـــــام وغرفة الزينة وغرفة النوم . ولذلك ترى السيدة « هانم افندى » فيهن الخطر كل الخطر لكثرة احتكاكهن بالبك او الباشا ولكى تأمن السيدة شرهن تفدق عليهن الهدايا لتكسب مودتهن أو تنزل بهن سخطها لتجعلهن من غضبها على حذر ، على ان النتيجة فى كلتا الحالتين غير مضمونة ولهذا تهتم بعض السيدات بخدمة زوجها بنفسها ، اما بدافع الحب او بدافع الحذر وخصوصا اذا كانت هذه السيدة أصلها جارية ثم أصبحت « هانم افندى » فانها تعرف فقط كيف تبعد الجوارى عن زوجها .

وكان البك او الباشا رمزا للسيادة فقط ، ولكنه فى الواقع لا يعرف شيئا مما يحدث فى داخل الحريم ولا يهتم لمعرفته ، فاذا دخل الى البيت يلقاه الجميع بالخضوع الواجب وابتسامة لا تفارق الثغور ، والويل لمن تتقدم اليه بشـــكاية فان هذا يمكنن مزاج البك ، وما وجد الحريم الا ليدخل على نفسه السرور ، وهذا فضلا عن انه لا يستطيع ان ينفع الجارية بشيء اذا شكت اليه ، بل ربما جلبت شكايتها لها آلاما جديدة .

يبيح الدين للرجل ان يخالط جواريه وينص على ان ابن الجارية لا يقل عن ابن السيده فى شيء ولكن من ذا

الذي يتبع تعاليم الدين لا وحتى اذا فرضنا ان الرجل خالط جاريته بنية حسنة ـ وما اقل ذلك ـ فان هذا غير مانع ان تبلغ الجارية امانيا ، فالسيد قضى ساعة لهوه وانتهى ، والجارية تظل رهينة الخوف من العين الرقيبة ولا تستطيع أن تبوح بسرها لأحد ، وإن تبوح لا ربما الى جارية مثلها والجوارى يدعون بعضهن « همشريم » اى أختى ، ومن هن الا اخوات فى الشقاء ، اخوات فى الحرمان ، ولكنهن ايضا أخوات فى الأمل ، اخوات فى الطموح ، اخوات فى الضعف ، وربما باحت احداهن بسر أختها تحت تأثير الخوف ليس الا .

اتبوح بسرها الى احد الأغوات ؟ قد تجد من هذا الرجل بعض العطف أو تسمع منه كلمة تعزية ولكنهم جبناء لا يستطيعون شيئا .

وهكذا تظل المسكينة فريسة الخوف وهى تعلم ان سرها سيفتضح يوما ما ، وانها ان استطاعت ان تحبس لسانها فان جسمها سينم عنها ، فربما كان من الخير أن تخبر سيدها بالأمر . ولكن كيف تخبره ، انهـــا لا تجمعها بذلك السيد الا جامعة الطاعة العمياء ، ثم هى تقوم على خدمته كل يوم فلا يعيرها التفاتا بعد تلك الليلة ، ويتناول منها الملابس حسب عادته القديمة ، بسرعة أو بتؤدة ، دون أن يلحظ انهـــا هى ، هى بعينها ، تقوم على خدمته .

وها هى أخبرته ، فماذا هو صـــانع ؟ سيحيلها على الهانم لتدبير الأمر ، والهانم لها أولاد .. ولا يعجبهـــا طبعا ان يكون هناك أولاد من غيرها يشاركون أولادها فى الاسم والجاه والميراث . وهنا ينصب على الجارية غضب الهانم مزدوجا ، غضبها بصفتها زوجة ، وغضبها بصفتها

أما ، واذا أراد السيد الا يكل الأمر الى الهانم . وفضل أن يخبر رئيسة الجوارى لعلها تتدبر الأمر ، فان النتيجة لن تكون خيرا من الأولى ، لأن الرئيسة تكون دائما في صف الهانم ، وقد لا يخبرها بالأمر مباشرة خوفا من سيدتها ، ولكنها لا تعدم وسيلة تفهمها بها حقيقة المسألة وتأمر السيدة بأن تعفى الجارية من العمل وتلزم غرفتها لا للراحة كما قد يظن ، ولكنها تحبس فى الغرفة لتذوق العذاب . وأعرف قصة جارية حبستها سيدتها فى الغرفة وأمرتها بأن تحيك « ناموسية » فكانت كلما حاكت جزءا قطعته السيدة بحجة انه خطأ ، وترشد الجارية الى الصواب ويكون هذا الارشاد دائما مصحوبا ببعض اللكمات والرفصات والقرصات ، فاذا جاء اليوم الثانى وفعلت الجارية حسب الارشاد اكتشفت السيدة خطأ جديدا ، وفعلت بها فعلة اليوم السابق .

ولا يكاد يختلف حريم فى مصر عن الآخر ، فالأساس متشابه والنظام واحد ، وبعد شرب القهوة يبدأ الحديث ، وهو حديث عجيب ، فمثلا عيشة هانم ظلت مدة لا تلد وكان يقتلها الشوق الى الأطفال ، فأشارت عليها جاريتها العجوز بأن تزور النخلتين ، وهما نخلتان لا تفصل بينهما الا فرجة بسيطة فأخذت عيشة هانم تتردد يوميا على النخلتين وتمر من بينهما ، فرزقها الله بغلام ... ما شاء الله !!

وفى حريم احد الأمراء أصيب طفل بحمى التيفود ، وحار الأطباء فى علاجه فجاء اغا القصر وكتب آية من القرآن على ورقة ، ثم وضع الورقة فى كوب من الماء حتى محيت الكتابة ، وسقى المريض من هذا الماء المخلوط بالحبر فشفى بعد خمس دقائق ... ما شاء الله !!

ونساء الحريم جميعا يؤمن بالخرافات ويعتقدن بالسحر فمنهن من تأتى بعظام الحيوانات فتقرأ عليها التعاويذ وتبخرها ثم تضعها تحت رأس زوجها لكى تطرد من قلبه حب واحدة اخرى ولا تبخل الواحدة بالمال فى سبيل الحصول على شراب الحب ، وهو شراب يجهزه بعض المشايخ « الباتعين » ، ويقرأ عليه عزائمه وتعاويذه فاذا شرب منه الزوج أحب زوجته الى حد الجنون ، واذا اخفق فعل السحر لم ينسب ذلك الى كون كل هذا دجلا لا طائل تحته ، وانما يقال ان الهانم لم تستعمل السحر حسب الشروط المطلوبة وهنا أقول أنا ... ما شاء الله .

ولم يكن مسموحا للطبيب بعيادة الحريم ، فكانت مرضى الحريم تداوى بطب التجارب ، فاذا استعصى الداء واشتد الخطر جاءوا بالطبيب ولكن لا يسمحون له برؤية المريضة شخصيا والكشف عليها بل يتولى احد الأغوات « الترجمة » بين السليلة والطبيب ، فيصف للطبيب أوجاع المريضة وما تحس به ، وهذا يصف العلاج اللازم ، فاذا اخفق العلاج ، وهو المنتظر فى مثل هذه الأحوال ، اعتبر أنصار القديم هذا الاخفاق انتصارا لهم واتخذوه ذريعة للطعن فى الطب والأطباء . واذا شفى المريض لم ينسب هذا الى مهارة الطبيب . ولكن الى تعويذة الشيخ او الى دواء (بلدى) وصفته (الحاجة) وبالتدريج سمح للطبيب بعيادة المريضة شخصيا بشرط الا يرى وجهها ، فكانت تقنع وتحجب ولا تكشف الا عن موضع الألم ، ويكون رئيس الأغوات حاضرا ساعة الكشف .

ولم تكن نساء الحريم تفهم الأمومة على حقيقتها ، بل

كن بعتبرن الأولاد وسيلة لتوطيد مركزهن ودرء الخطر عنهن من طلاق عاجل أو زواج بأخرى ، فالأطفال فى نظرها درع يقيها شر الضرة ، فاذا حدث أن الزوج تزوج بأخرى بالرغم من وجود الأطفال ، فان الأم تصب غضبها عليهم لأنهم لم يستطيعوا درء الخطر ، فتحرمهم من اللعب والفسحة وتهمل شأنهم ، وتقسو عليهم ، وكأنها نسيت انها تعذبت فى حملهم شهورا ، وهم فى نظرها هدايا منحتها لزوجها لتقربه على البقاء معها ، فاذا لم يفلح الاغراء فهى تحاول اتلاف الهدايا وتكسيرها .

على ان الخطب قد يهون اذا كانت الضرة فى داخل الحريم ، فان هناك عينا ترى واذنا تسمع وفرصة للكفاح واسترداد الزوج بالتحبب اليه أو الطعن فى الزوجة الأخرى ، ولكن البلوى تكبر والمصيبة تعم اذا كانت المنافسة أفرنجية تقابلها الزوج خارج المنزل ، وتحول جدران الحريم دون وصول الزوجة اليها ، فان سبل الكفاح هنا تكون ولا محل المنافسة اذالاقا ، وتصبح الزوجة مكتوفة الأيدى أمام عدو لا تراه ولا تستطيع الوصول اليه . والويل الأطفال فى هذه الحالة ، فانهم يشردون فى بيت أبيهم ، والتى تشردهم هى أمهم التى ولدتهم ، فأنستها الغيرة حنان الأمومة .

أما التعليم فحظ الصبيان منه أوفر من حظ البنات قعيدات البيوت ، ففى الطبقة المتوسطة يرسلون الى المدارس ، وفى الطبقات العليا يرسل الاولاد الى أوروبا للدراسة ، أو يؤتى لهم بمعلمة أفرنجية لتعلمهم فى البيت ، ولكن الأم ترى فى هذه المعلمة خطرا على مركزها تصعب عليها مأموريتها فتتدخل فى الدرس . وهى

لا تستطيع كتابة اسمها ، فتشطب من جدول الدراسة ما تريد وتقرر ما تريد حتى يضيق ذرع المعلمة فتهجر البيت ، وتأتي غيرها فتقع لها ما وقع للأولى ، وأخيرا ييأس رب البيت فلا يأتي بمعلمات ويحرم الأولاد من التعليم ، واذا أسند الدرس الى معلم سعى به السعاة الى سيدهم وطعنوا في كفاءته وأخلاقه ، فان لم تجد هذه الطعون أذنا عند السيد أتوا اليه من طريق قل ان يخفق ، فيدعون ان المعلم طعن في الاسلام والنبي وانه يلقن الأطفال تعاليم النصرانية . ومهما كان رب البيت واسع التفكير فانه لا يسمح مطلقا بالطعن في دينه فيخلي سبيل المعلم . فلا عجب بعد ذلك اذا كان الأولاد الحريم غير محبين للعلم ، حتى أن الخديوي عباس حلمي الثاني كان لا يفهم شغفي بالمطالعة . ورأى مرة كتابا في يدي فقال لي (ما هذا الحمان ؟) وها هي الظروف التي جعلت من خديوي مصر رجلا من كبار المولين . ومن زوجة الخديوي أديبة وكاتبة ، فهل نرى أكان كل منا على حق في رأيه ، أم كنا كلانا على ضلالة !؟

على ان لكل قاعدة شواذا . فان البرنس كان اميرا وشاعرا . وكان يركب عربته فتطوف به الساعات الكثيرة وفي يده كتاب يقرأ فيه . والى جانبه عدة كتب اخرى . وأغلب ظني انه ما كان يعمد الى هذه الطريقة الا ليستطيع التفرغ للمطالعة بعيدا عن الزيارات والمحادثات التلبفونية والمقابلات التي تصرفه عن كتبه العزيزة .

ولما اردت ان أتعلم اللغة العربية وأتعمق في دراستها ودراسة الاسلام . وكان من المحال اسناد هذا الى احد العلماء لجهله باللغات الاوروبية التي اجيدها . ووكل

أمر تعليمي الى المستشرق العظيم البروفسير « هس » وهو رجل لا ازال أذكره بخير واشكره على كل كلمة علمني اياها . فكنا نجلس في غرفة المكتب في سراي (مسترد) ويبدأ في درسه . فأتنقل معه من مكة الى المدينة . ومن الحضر الى البادية في خفة ومهارة ، حتى ان قواعد اللغة العربية على صعوبتها وجدتها منه سهلة التناول ، وكان يعلمني الاسلام من آيات القرآن . وكنت اقابله لابسة معطفي وقد وضعت على رأسي غطاء . ولكنهم طلبوا مني يوما أن أغطي كفي أيضا . اذ لا يجوز أن آمد له يدي عارية !!

عجبا !! المعلم لا يحق له أن يرى يدي ، وهو الذي يرى نفسي كلها . أليس هو الذي يرى روحي ؟ هنا علمت أن القوم انما يريدون أن يجعلوني عبدة لتقاليد جامدة نشأوا عليها ولم يفكروا فيها .

وكان عندي في سراي « مسترد » خادمة اسمها « جبريلة » تقدمت بشهادات حسنة ممضاة من مركيزة أو فيكونتة أو بارونة . ويشهد الجميع بانها نعم الخادمة . وفي الواقع كانت نشيطة وتفهم ما أريد باشارة بسيطة . وكانت الخادمات يكرهنها لانها كانت دائما تحاول التقدم عليهن والتقرب مني وكانت تنتظر عودتي في المساء مهما تأخر الوقت فلا تنام حتى آوى الى فراشي . فاغتبطت بها كثيرا . وخرجت مرة لبعض الشئون فلما عدت أخبرني الخدم بأن « جبريلة » عزفت على البيانو أثناء غيابي فلم أعتبر هذا خطيئة تستوجب العقاب . لاني انا شخصيا أعزف على البيانو . فلاأستطيع أن أحرم على غيري ما أحله لنفسي . ولكني سألتها أين تعلمت العزف . فأجابتني بأنها كاثوليكية وتعلمت العزف

فى الكنيسة فأصبحت انظر اليها نظرة اخرى . ولكن لم يخامرنى فى امرها شك .

وكانت تضيع منى بعض أشياء وقطع من الملابس . وأخيرا ضاعت مرآة جميلة باطار مرصع . وبالرغم من أن الخدم جميعا يكرهون جبريلة فانهم شاركونى فى الرأى فى انه لا يمكن ان تكون هى السارقة . فطمأنت الخدم بان الأشياء سوف توجد من نفسها .

وحدث اننى أرسلت خادمتى الأولى « هرملين » الى الاسكندرية . فأخذت جبريلة مكانها فى هذه الليلة ونامت فى الغرفة المجاورة لغرفتى . وكنت فى هذه الليلة متعبة . وقالت جبريلة وهى تسدل الناموسية انها ستسهر فى غرفتها اذ ربما أحتاج اليها . ولكننى أمرتها بان تنام فلن احتاج اليها . فأطفأت النور وخرجت . واستسلمت للنوم فحلمت اننى فى غابة كثيفة مظلمة جدا . فكنت اتلمس الطريق بيدى . وفجأة رايت شعاعين من نور يقتربان منى . ثم تبينت انهما ليسا شعاعى نور بل نظرتين ، فاستيقظت من نومى فرايت عينين تحدقان بى احداق سوء ... جبريلة !!

واعتذرت عن وجودها الى جانب فراشى بانها ظننت بانى ناديتها وطار النوم من عينى وشعرت بأنها تكذب . ولو لم تكن نظرتها نظرة سوء لما ايقظتنى من النوم . فشغلنى امرها واصبحت فى نظرى لغزا سرنى حله ..

وبعد بضعة أيام وصل الى التماس من رجل عبثت به الأيام يرجو مساعدته فى الحصول على وظيفة . او منحه اجرة السفر للعودة الى بلاده . وجلست أقرا وكانت جبريلة فى الغرفة ترتب بعض الأشياء ، فقالت

بصوت ضعيف « اننى اعرف هذا وهو انسان ذكى لعيس ويا حبذا لو تنازلت صاحبة السمو وراته شخصيا لتتأكد بنفسها من صحة ما أقول » فأجبتها الى هذا الطلب لاننى ادعى معرفة النفوس . فذهبت الى باب الحديقة تتبعنى جبريلة . فوجدت رجلا نحيلا شاحبا . ولكننى لم الاحظ عليـــه الذكاء المنشود ، ومع ذلك لم ابخل عليـــه بالمساعدة .

وحدث اننى احتجت الى مفتاح كانت تحمله جبريلة . ولما لم تكن هى موجودة ارسلت من يبحث عن المفتاح فى غرفتها ولكنهم وجدوا بعض الأشـــياء الضائعة . ومن ضمنها المرآة الثمينة . وعثروا على خطـــابات حب ومراسلات بينها وبين قسيس فى دير . وفيها شـــكر على الملابس التى وصلت الى الدير وكشف بطلبـــات جديدة . ولما عادت جبريلة لم تفقد رزانتها . بل تقدمت بـــكل جراة وقالت انها تنتظر العقاب الذى سيحل بها ؛ فأطلقت سراحها دون عقاب . وعلمت فيما بعد انهـــا التحقت بأحد الأديرة ، وأما الرجل الذى احسنت اليه على باب الحديقة فقـــد اكتشف البوليس انه فوضوى ونفاه الى بلاده .

دراسة عن :

دراسة عن :

محمد جويدان

بقلم :

سعد رضوان

أيام جويدان

اذا كانت الأميرة جويدان قد قدمت لنا فى مذكراتها جانبا من الحياة فى عهدها فانها قد اطلعتنا على الجانب الذى عرفته من الحياة فى القصور التى عاشت بها هذه البنت الشقية أو الأميرة المدللة .

ولكنها لم تكلمنا عن باقى افراد وطبقات الشعب المصرى فى عهدها ، والحق انها لم تكن لتستطيع فحياتها كأميرة زوجة للخديوى فى عهد بدأ فيه تعليم النساء وخروجهن على استحياء ، لم تمكنها هذه الظروف من الاطلاع على تلك الحياة ...

والباحث اذا اراد الاطلاع على عهد من العهود فان أول ما يفعله هو البحث عن جرائد وصحف هذا العهد .

والغريب ان الصحف فى عهد جويدان كانت كثيرة ومتقدمة بشكل غير متصور ، وهى فى نفس الوقت متنوعة منها الأدبية والخبرية والسياسية .

وهل أخبرك ان جورجى زيدان — أسس مجلة الهلال

في نفس السنة التي اعتلى فيها ذوبج جورجيان العرش أي عام ١٨٩٢ .

وكانت الأهرام قد ظهرت قبل ذلك ببضعة اعوام فأسسها سليم وبشاره تكلا عام ١٨٧٥ وهي أكبر جرائدنا اليومية اليوم وقد اسس يعقوب صروف عام ١٨٨٨ بالاشتراك مع الدكتور فارس واسكندر مكاريوس جريدة « المقطم » التي استمرت في الظهور حتى عام ١٩٥١ .

ومن صحف ذلك العهد السياسية « الجريده » التي اسسها أحمد لطفي السيد لسان حال حزب الامة

على ان أهم جريدة سياسية هي تلك التي ظهرت في مطلع القرن واصدرها مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني في يناير عام ١٩٠٠ وهي جريدة « اللواء » التي ظهرت لتنافس ٥٣ جريدة ومجلة مختلفة كانت تصدر وقتها .

ولا شك ان رقم الثلاثة وخمسين رقم ضخم يفاجيء القاريء ، ولكنه الواقع .. الواقع في شعب تعداده كان تسعة ملايين نسمة منهم سبعة ملايين ونصف من العمال والفلاحين والصناع ومليون ونصف من الملاك شبه المعدمين الذين لا يملك الفرد منهم اكثر من فدان واحد بينما يملك ١٢٫٥٠٠ فرد اكثر من ٢٠٠ فدان الفرد ويبلغ أجر العامل أو الفلاح في اليوم ما بين قرشين وثلاثة قروش وميزانية الدولة سنة ١٩٠٠ كانت احد عشر مليونا وفي السنوات السبع من مطلع القرن أي من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٠٧ تأسست في مصر مائة وستون شركة مجموع رأسمالها ثلاثة وأربعون مليون جنيه

لا شك ان هذه الأرقام عجيبة ولكنها كانت بداية نهضتنا .

وفى الكلام عن صحافة العهد يحسن أن أرجع الى الوراء قليلا ففى عام ١٨٦٠ اكتشف السلطان عبد الحميد ان بلاد الشام أى سوريا ولبنان اصبحت كافرة ودخلتها اشياء لا يقبلها شرعه كالصحف والمسارح والفنون ، وكان اضطهاد وثورة ضد هذه البدع بل وحدثت مذبحة ضخمة فى سوريا .. وهكذا لا تعجب من أن يهاجر الصحفيون الشوام الى القـــاهرة ويستقروا بها كما هاجر رجال مسرحهم واهل الأدب والفن عندهم .

تقرير قصر الدوبارة :

وهذا جزء من تقرير كتبه المعتمد البريطـــانى اللورد كرومر الذى كان يحكم مصر من « قصر الدوبارة » الذى هو الآن مقر السفارة البريطانية بالقاهرة يقول التقرير الذى نشر عام ١٩٠٦ :

« انه مما يؤسف له ان الصنائع اليوم فى الانقراض .

فالترموای يحل محل الحمير لنقل الركاب وبانقراض ركوب الحمير تنقرض صناعة السروج وتوابعها .

« وقـد قل اســـــتعمال البلاط البلدى لتبليط أراضى الفرف وحل محله البلاط الافرنجى المصنوع من الأسمنت ، فأخذت صناعة الحصير تنقرض .

وحلت الطلمبة الحـديثة فى استخراج المياه محـل الساقية ، والسقائين .

ولما كان الدباغ المصرى يجهل طرق الدباغة الجديدة فقد أخذ ينقرض أمام زميله الأوروبى .

وصناعة النسيج اليدوى أصبحت تنحط وتحل محلها المنسوجات الأوروبية .

وقد بطلت أو كادت مهنة الصباغة بالنيلة بعد أن أصبحت الأقمشة ترد من الخارج مصبوغة بالصباغة الحديثة .

واستبدل الأهالى ملابسهم المزركشة الزاهية الألوان التى كان يخيطها لهم الخياطون بالملابس الأوروبية التى ترد جاهزة .

وكسدت صناعة الأحذية الحمراء الوطنية حتى صار المشايخ رغم انهم اكثر الأهالى تمسكا بالقديم يلبسون احذية أوروبية .

والمنجد العربى الذى كان يرضى الجيل القديم راى نفسه عاجزا الآن عن ارضاء زبائن اليوم الذين يطلبون منه صنع كراسى ومقاعد وأرائك من طراز لويس الرابع عشر والخامس عشر .

وقد أصبح الاختلاف ظاهرا وواضحا لكل من يقابل ويقارن بين مصر الآن ، ومصر منذ عشر سنوات أو خمسه عشر سنة فقد كانت الشوارع فى ذلك الوقت مزدحمة بمحلات الصناع من غزالين وحائكين وعقادين وصباغين وخياطين وصاغة وعطارين وقربية (لصناعة القرب التى كانت تملأ بالماء) وسرجية (الذين يعدون الجلود بعد دبغها للصناعة) وصانعى مناخل وأقفال (فقد كانت الأقفال فى ذلك الوقت كبيرة وتصنع من الخشب ولها ذراع به سنون لفتحها) .. وامثالهم وغيرهم .

فكل هذه المحلات التى كانت متجاورة وكثيرة قد قلت أو انقرضت وحلت محلها دكاكين صغيرة مليئة ببضائع اوروبية .. الخ .

أرأيت مدى النقلة التى كانت فيها البلاد فى عهد جويدان .

فى عصر كهذا يحدث للناس توتر ويتحرك عقلهم وتنتبه أذهانهم فرغم ما قد يبدو على العصر من هدوء ربما كان ذهولا لما يحدث أو هروبا من الجديد أو اندفاعا اليه كان هناك غليان فى العقول والنفوس أنتج أفرادا من المفكرين وأصحاب الرأى والأدباء والفنانين وغيرهم ولو أردت ان أعدد هؤلاء لاحتجت الى مجلد ضخم ولذا ساكتفى بالكلام عن بعض حوادث ورجال ذلك العهد الذين أثروا فيه اجتماعيا خاصة وان كتابنا الحاليين قد وفوا ذاك الزمان من الناحية السياسية بما لا يدع مجالا لمزيد .

علي يوسف

وفى تلك الأيام ظهرت جريدة « المؤيد » وهى جريدة اصدرها الشيخ على يوسف . وأهمية هذه الجريدة هى أنها من أولى الجرائد التى اهتمت بالأخبار أكثر من اهتمامها بالمهاترات والخلافات الشخصية من مدح وذم، وان كانت مع ذلك لم تخل من روح العصر .

وللشيخ على يوسف هذا قصص تستحق التسجيل .

وأهم قصة صحفية حدثت للرجل هى حادثة سرقة البرقيات .

ففى عام ١٨٩٧ أرسل الانجليز حملة الى السودان بقيادة السردار البريطانى لقمع ثورة المهدى بالجزيرة وكان السردار يقود الجيش المصرى والجنود المصريين المشتركين فى الحملة ، ومن هنا كان اهتمام الشعب والصحف بالأخبار .

ولكن من أين تأتى الأخبار فى حالة الحرب ، اما من مراسل حربى فى الجبهة ، وهذا ما لم تكن الصحف المصرية تقدر على تغطية تكاليفه ، واما من القيادة البريطانية فى القاهرة وكبار رجال الحكومة ونظارة الحربية المصرية ، وهذا هو المصدر الوحيد للصحف

المصرية ، ولكن هؤلاء كانوا لا يعرفون شيئا ان بمعنى أصح لا يقدمون للسائلين وخاصة الصحفيين ، غير كلام لا يخرج عن الانتصارات وعن عدم وجود خسائر وعن ان الحالة على ما يرام .. الى آخر ما نعرفه عن البلاغات الرسمية اثناء المعارك .

وفجأة ظهرت جريدة المؤيد في عددها الصادر في ٢٨ يوليو عام ١٨٩٦ وقد نشرت مقالا عن احوال الجيش المصري على الحدود .

وجاء بالمقال ان التلغرافات الأخيرة الواردة من بلدة كوسة تفيد ان السردار شديد القلق بسبب انتشار وباء الكوليرا في نقط ومراكز خطـــوط المواصلات وفي المعسكرات وانه قد اصيب من العساكر الخديوية اى المصريين في اسوان ٢٩ اصابة وتوفى منهـا ١٥ جنديا في بلدة كروسكو حدث ٢٣ اصابة وتوفى ١٣ ، وفي بلدة حلفا بلغت الاصابات اشدها فقد بلغ عدد الجنـود المصريين الذين اصابهم المرض ١٥٦ جنديا توفى منهم ٩٨ . وانه رغم حدوث اصابات في بلدة سواردة بين الجنود الا انها لم تبلغ من الشدة ما بلغته الاصابات في الاهالي وخاصة الفارين اللاجئين من الجنـوب هربا من الحرب والذين توفى عدد كبير منهم .

وبسبب هذه الاصابات وبسبب تأخر القطارات التى تنقل المعدات والعتاد لقدم الوابورات « القاطرات » فان الهجوم على دنقلة قد تأخر مما جعل الدراويش (الثائرين السودانيين اتباع المهدى) يتحصنون في تلك البلدة .

وطبعا فان نشر مثل هذه الأخبار والتفصيلات اثار

هياجا كبيرا سواء بين افـــراد الشعب أو فى وزارة الحربية وكانت تسمى نظارة .

وكانت المشكلة هى ان كل المعلومات التى نشرتهـا الجريدة صحيحة ومنقولة بالنص عن برقية أرسلهـــا السردار باللغة الفرنسية الى نظارة الحربية ، ومعنى هذا ان هناك أحدا قد سرق نسخة من البرقية وسلمها للجريدة .

وبلغ الأمر من الهياج أن ناظر الحربية أمر بنقـل ستة من موظفى الوزارة الى الحـــدود ، لا لأنهم ثبت ضدهم شىء ، بل لمجرد ان البرقية تدوولت بين أيديهم وهى فى مظروف مغلق .

ويحدثنا الدكتور محمود كامل المحامى والقصاص فى كتابه أشهر القضايا المصرية عن هذه الحادثة فيوضح ان المؤيد عادت بعد ذلك ونشرت برقيات أخرى فى نفس الموضوع مما مكن الجريدة من تغطية انباء تلك الحرب ، وان الذى كشف السر هو جريدة المقطم وكانت تنافس المؤيد ، وبين الجريدتين خصومة وسباب متبادل ، وكان للمقطم مراسل فى بلدة بيا أرسل اليها برقية فى ٢٧ يوليو عام ١٨٩٦ بها أخبار خاصة بالجريدة ، وسلمت البرقية للمقطم من مكتب تلغراف الأزبكية ، وفوجىء صاحب المقطم بأن نفس البرقية قد نشرت فى المؤيد رغم ان الشيخ على يوسف ليس له مراســـل ببلدة بيا . وتوجه الدكتـــور فارس نمر صاحب المقطم الى رئيس مكتب الأزبكية يشكو له ما حدث .

وكلف رئيس المكتب ، وكان هو نفس المكتب الرئيسى

الذى تصل اليه برقيات وزارة الحربية ، احد الموظفين بمراقبة زملائه .

وقدم الموظف تقريرا لرئيس المكتب بانه راى توفيق أفندى كيرلس احد موظفى المكتب ينقل صورة برقية مرسلة من مراسل جريدة الديلى تلجـــراف الانجليزية بالقاهرة الى جريدته ويخفيها بجيبه .

وفتش رئيس المكتب توفيق كيرلس وقبض عليـــه ونســـــخة البرقية بجيبه الذى اتضح انه على علاقة بالشيخ على يوسف وانه ينقل له صورا من البرقيات الهامة .

والمهم ان الشيخ على يوسف وتوفيق كيرلس قـدما للمحـــاكمة وحكم ابتدائيا بحبس توفيق كيرلس ثلاثة اشهر ولكن محكمة الجنح المستأنفة براته بعد مرافعة المحاميان الهلباوى والحسينى وكانا من اشـــهر محامى ذلك العصر واولهما كان احد المدافعين عن المتهمين فى قضية دنشواى فيما بعد .

والقصة الثانية الشـــــهيرة للشيخ على يوسف هى قصة زواجه .

وفى سنة ١٩٠٤ أراد على يوسف أن يتزوج .. وعلى صحافى كبير له جريدة رائجة ولا شك ان تقدم صاحب ورئيس تحرير جريدة يومية كبيرة اليوم بطلب الزواج من اية بنت سيجعلها تفرح ويجعل اهلها لا يترددون فى قبوله زوجا لابنتهم .

ولكن عهد على يوسف كان غير ذلك فاذا كنا قـــد قرأنا فى مذكرات جويدان مقدار عدم احترام الخديوى

للكتب الأدبية واحتقاره لها ، فما بالك برأى اهل ذلك الوقت فى الصحف والصحفيين .

الحق ان كبراء ذلك العهد لم يكونوا ينظرون الى الصحفيين الا كطبقة غير لازمة للمجتمع ، وكان الصحافى « جورنالجى » ، والجورنالجى ليس شخصا هاما يحق له الزواج ببنات العائلات الكبيرة .. كما ان الصحافة كانت ناشئة ، ونحن نعلم ان المحافظين يعارضون دائما كل جديد ولا يعترفون بقيمته الا بعد أن يفرض نفسه .

والمهم ان الشيخ على تقدم لخطبة بنت احدى الأسرات الكبيرة فى عهده هى الآنسة صفية التى يرجع اصل عائلتها الى سلالة الحسين . ولم يوافق ابوها ، ولكنه بعد الحاح بعض الكبراء والوزراء والأمراء الذين وسطهم على يوسف اضطر الى الموافقة وتمت الخطبة وقدم الشيخ المهر والنيشان اى الشبكة و ..

ولكن يبدو ان الأب راجع نفسه فى هذه الزيجة فانه أخذ يماطل فى الزفاف لفترة طويلة رغبة منه فى أن يتضايق العريس فيفسخ الخطبة . ولكن العريس كان مشاغبا فقد استطاع ان يقنع العروس صفية بواسطة بعض قريباتها بالهروب من بيت أبيها الى منزل على يوسف الذى أحضر المأذون وبعض الأصدقاء وأتم العقد .. ثم نشر الخبر فى اليوم التالى بجريدته حتى يضع الوالد أمام الأمر الواقع .

وكان حادثا خطيرا وأسرع الأب الى ابلاغ النيابة ضد الشيخ بأنه غرر بابنته ، ولكن النيابة حفظت البلاغ لان الزواج سليم والبنت بلغت سن الرشد .

واتجه الأب الى القضاء فرفع دعوى امام المحكمة الشرعية للتفريق بينهما وبطلان الزواج لعدم الكفاءة بين الزوجين .

ونظرت القضية فى جلسة ٢٥ يوليو عام ١٩٠٤ وحكمت المحكمة مبدئيا وبصفة مستعجلة بالتفريق بين الزوجين لحين الفصل فى الموضوع .

ورفضت صفية الذهاب الى منزل والدها تنفيذا للحكم ، وحتى لا تثار المشاكل فان الشيخ على يوسف قد نقل زوجته الى بيت محايد هو بيت الشيخ الرافعى لتعيش فيه بعيدا عنه وعن والدها .

ولكن القاضى رفض هذا الحل واعتبره تحديا للمحكمة وأوقف القضية لحين تنفيذ حكم المحكمة بذهاب صفية الى بيت أبيها .

والمهم ان القاضى أصدر حكمه بالطلاق لعدم التكافؤ لأن الشيخ على من أصل فقير غير معروف وان الثراء لا يزيل عنه أصله ، ولأنه يعمل فى مهنة محرمة شرعا وهى الصحافة لأنها مهنة تقوم على الجاسوسية والاشاعة وكشف الأسرار وهذا ما نهى عنه الشرع !

ومهما يكن فانه بعد صدور الحكم واسترداد الأب لكرامته التى اهينت بهروب ابنته فان الوالد ابدى سماحة واعاد تزويج على يوسف بابنته صفية بعقد جديد .

ابراهيم الويلحى وابنه محمد :

ومن ادباء تلك الفترة وصحفييها ابراهيم الويلحى الذى

ولد سنة ١٨٤٦ وتوفى عام ١٩٠٦ وأنشأ مجلة « مصباح الشرق » تلك المجلة الساخرة التى كان الناس ينتظرونها مساء كل خميس لما فيها من صور كاريكاتورية ساخرة.
وكان ابراهيم قد عاش فى الآستانة عشر سنوات باستدعاء من السلطان عبد الحميد فلما عاد الى مصر ألف كتابا عنوانه : « ما هنالك » .

وفى كتابه هذا سخر من البلاط العثمانى ومن السلطان عبد الحميد الذى استولى الدجالون على عقله .

وكان هناك دجال اسمه « أبو الهدى الصيادى » احد أربعة دجالين أوهموا السلطان انهم يعلمون الغيب وان الأمة العربية بين أيديهم وانهم قادرون على ان يعيدوا له لقب الخلافة .

وكان الشيخ ابو الهدى قد ذهب الى السلطان ليبلغه رؤيا رآها فى منامه ، ورفض ان يتكلم مع السلطان الذى لا يعرف غير التركية بينما الشيخ لا يعرف غير العربية ، بواسطة مترجم ؛ لانه امر ان يبلغ الرؤيا شفاهة وللسلطان شخصيا دون وساطة .. وخرج .. وبعد يومين عاد الشيخ ووجهه متهلل وقال انه سيبلغ الرؤيا الآن بنفسه للسلطان لانه يتكلم التركية .. فسألوه كيف امكنه تعلم اللغة التركية فى يومين فأجاب بانه جاءه فى المنام كبير المقام ، وملس على فمه فتكلم التركية ، فلما سمع السلطان ذلك انفرد بالرجل ، وبعدها اصبح الشيخ اثيرا عنده .

الابن :

ولد ابنه محمد المويلحى عام ١٨٦٨ وتوفى عام ١٩٣٠ وعمل مع والده فى « المصباح » وظهر كمؤلف قصصى متمكن فألف « فترة من الزمان » عام ١٩٠٧ واتبعها « بحديث عيسى بن هشام »[1] .

وتعتبر رواية : « حديث عيسى بن هشام » حلقة وسيطة فى القصة المصرية والعربية فلم تكن القصص بالطريقة الحديثة الأوروبية معروفة لدى العرب أو المصريين فقد كان القصاص يكتب قصصه بطريقة المقامات كمقامات الهمذانى والحريرى بينما القاص الشعبى يكتبها أو يقولها بطريقة الرواة كسيرة عنترة وسيف بن ذى يزن وألف ليلة وليلة فهذه كلها رغم أنها قصص وروايات الا أنها تخرج من موضوع لتدخل فى آخر وتعتمد على التشويق الذى يقدمه « الأدباتى » الراوى الذى يلقيها مسلسلة بالمقاهى معتمدا على ربابته ، وكانت المقاهى فى ذلك العهد تتنافس فى استقدام الرواة ، ويذهب المصريون اليها لشرب النارجيلة « الشيشة » والشاى والاستماع فهى نوع من مسرح المقهى .

أما القضية والرواية التى تعتمد على موضوع وتحليل وشخصيات ولها بداية وذروة ونهاية فهذه لم تكن قد عرفت بعد .

ثم ظهرت عيسى بن هشام مزيج من الأدب الحديث الذى يروى قصة لها حبكة ويضمها موضوع وفى نفس الوقت كتبت بتلك الطريقة التى كتبت بها المقامات فى بعض أجزائها حيث نجد الكلام المسجوع وأنواع الجناس

ومراعاة الفـــــواصل الى آخر المحسنات التى تعطى للـكلام رنينا أكثر مما تعطى أفكارا ، ولكن الـكاتب فى حيرته بين المقامة والرواية قدم لنا الرواية المصرية الأولى حقا .

وأهم ما فى الرواية هو ما بها من مفارنات تعرفنا على نوع الحياة فى هذا العهد ، عهد جويدان ، والعهود السابقة كأيام جدها محمد على .

والرواية تقص قصة عيسى بن هشام « الراوى » الذى كان يسير بين القبور ففوجىء بقبر يفتح ويخرج منه رجل طويل القامة مهيب يساله بعظمة عن اسمه وعمله . فاخبره ان اسمه عيسى وانه يعمل كاتبا وهنا نجد مفارقة فى ان الرجل لا يعرف شـيئا عن مهنـة الـكاتب الا أنه الشخص الذى يؤجر لكتابة الرسائل او العرضحالجى كما نسميه اليوم ، أما الكاتب كصحفى ومؤلف فهـذه مهنة لم يسمع بها المرحوم .

ويطلب الرجل من عيسى ان يحضر له ملابس وحصانا وكان الخـارج من القبر هو احمد باشا المنبكلى الذى تعجب لأن عيسى لا يعرفه وبجهل بيته ويحاول عيسى ان يفهم الرجل ان البيوت فى مصر اصبحت ليا عناوين فلم تعد تعرف بأسماء اصحابها ، بل بأسماء شوارعها وارقامها .

ويستغرب الباشا لانه يعرف ان الأرقـام هى لتمييز عساكر النظام واوامر الحكام ولـست للبيوت .

واعطاه عيسى ردائه وهو يتعجب ويقول فى نفسه :

ـ كنت اظن ان سلب المارة لا تكون الا من قطاع الطرق فاذا هو أيضا من سكان القبور .

وقبل الباشا الرداء متضررا قائلا انه كان احيانا يلبس

مثل هذا الرداء وهو يخـــرج متنكرا مع ابراهيم باشا لاستطلاع أحوال الرعية ويسأل كيف سيدخلون المدينة وهم فى الليل وهو لا يعرف كلمة سر الليل التى لا تفتح ابواب المدينة ليلا الا بذكرها .

وعيسى لم يسمع بمثل هذا النظام .

فيخبره الباشا بأنها كلمة تصدر كل ليلة من القلعة الى الضباط فى القرة قولات (أقسام الشرطة) وحراس الأبواب ، وتتغير كل ليلة فهى يوما « عدس » وليلة « خضار » وأخرى « حمام أو فراخ » .

وبفهمه عيسى انه لا داعى لهذه الكلمة أو غيرها وان ابواب المدينة أصبحت مفتوحة لا تغلق .

وسار الاثنان الى القلعة .. وسار خلفهمـــا مكارى بحماره ، والمكارى هو رجل يؤجر الحمير للركوب ، فقد كانت تلك وسيلة الانتقال داخل المدينة فى ذلك الوقت، مثلها مثل العربات الكوبيل (ذات العجلتين) أو الفيتون (ذات الأربع عجلات) التى يستعملها الأغنياء ، وكانت للحمير مواقف تقف بها ، واحواض داخل المدينة تشرب منها ، وهى أحواض انشأها الفرنسيون أيام نابليون لسقى خيولهم فأصبحت الأماكن التى بها الأحواض تسمى الفرنساوى .

المهم ان المكارى سار بحماره خلفهمـا ثم أمسك بذيل الباشا وهو يقول له :

ـ اركب يا أفندى ، لقد عطلتنى وانا اسير وراءك من الصباح .

وصدم الباشا فلا يليق بمركزه ان يركب الحمار ، وصمم المكارى على ان الباشا أشار اليه وهو يكلم صاحبه

وانه سار خلفه حسب الاشارة ليركب معه ، فان لم يركب فعليه ان يدفع أجرته .

وقامت مشادة بين الباشا والمكارى ، وأمر الباشا عيسى أن يضرب المكارى ، كما لو كان عيسى أحد عساكره فافهمه عيسى ان الضرب جنحة والقتل جناية ، ولكن الباشا لم يستمع لكلام صاحبه وامسك بالمكارى وضربه .. وصرخ الرجل منـــاديا البوليس ويسأل الباشا عن معنى كلمة بوليس ، فيفهمه عيسى أن معناها « القواس » (أى حامل القوس) .

واقتيد الرجل الى قسم البوليس حيث اصطدم باحد العساكر ووقع فوقه فاعتبر الأمر اعتداء على ممثل السلطة وحرر للباشا محضران وأخذت بصماته ، ثم طلب منه احضار ضامن يضمنه فخرج عيسى واحضر شيخ الحارة ليضمن الباشا معه .

وحضر مفتش للقسم فأراد الباشا أن يشتكى له ، فما كان من المفتش الا أن أمر بابقاء الرجل للصباح حتى يكشف على سوابقه ويرسل للنيابة .

وتركه عيسى وعاد فى الصباح ليجده قد أرسل لقلم تحقيق الشخصية لفحص سوابقه ، ثم الى النيابة ، ولم يستطع الباشا أن يفهم ان النيابة تنوب عن الأمة كلها فى تطبيق القانون فمعلوماته فى عهده انه لابد ان يكون هناك أمير عظيم يولى نوابا فى ولاية الدماءوالاعراض والأموال ، ويحاول عيسى ان يفهمه ان وكيل النيابة هو متخصص حصل على شهادة تؤهله للعمل فى هذه المهنة خلاف عهد الباشا الذى كانت الوظائف فيه تعطى لأبناء الأغنياء والتابعين .

وقدمت القضية الى المحاكمة .

ويدور حوار عن المحاكم تذكر فيه المحاكم المختلطة وهذه المحاكم كانت نوعا عجيبا فى ذلك العهد ، فان كل قضية يكون فيها خصم او طرف من الاطراف غير مصرى تنظر أمام تلك المحاكم أو أمام المحاكم القنصلية التى كانت مختصة بالجنح التى تقع من رعاياها ضد المصريين او ضد بعضهم البعض .

والحق ان هذه المحاكم كانت سبة فى جبين مصر لم نتخلص منها الا فى عام ١٩٤٨ بعد الغاء الامتيازات الأجنبية واصبح القضاء الوطنى هو المختص بكل المنازعات .

ونعود للباشا فان المحكمة بعد نظر الدعوى وسماع الدفاع حكمت على الرجل بالحبس سنة ونصفا والغرامة والمصاريف ، وقرر المحامى الاستئناف .

وسمع صوت بائع الجرائد ينادى :

« المؤيد والمفطم والأهرام ومصر » الأربعة بقرش ..

ودخل الباشا فى حديث مع عيسى عن الجرائد ، فأخذ عيسى يشرحها له لانها لم تكن موجودة فى عهده ، ويشرح الباشا ان فى عهده كانت هناك غازيته واحدة بالتركية اسمها « روزنامة وقائع » واخرى بالعربية اسمها « الوقائع المصرية » تدور فيها اسماء المدائح والتهانى واخبار انتقال الركب العالى .

وفى محكمة الاستئناف كانت جريدة « مصباح الشرق » قد نشرت تحقيقا عن المكاتبة الذين يعترضون الناس ويلحون عليهم بسوء أدب وقلة تربية واستعان المحامى بهذا التحقيق وصدر الحكم بالبراءة .

وتبدأ قضية أخرى وهى مطالبة المحامى بأتعابه ،

والباشا لا يملك شيئا رغم انه كانت لديه كنوز وكنوز فى زمانه وأيامه .

وثارت مشكلة ان الباشا لا يجد أهله ولا مانه ، ثم تذكر ان له وقفا ، وبحث بمعاونة عيسى عن الوقف حتى عثرا على دكان عطار بها شيخ عجوز نظر اليه الباشا وناداه فهب الرجل واقفا .. وسأله الباشا :

ـ الست أنت احمد اغا الركبدار ، الا تعرفنى .

وعرفه الرجل بعد أن كشف له الباشا عن علامة من أثر اللعب بالجريد فى قدمه . وسأله الباشا عن ذريته فقال الرجل انه لم يبق منهـــــا غير حفيد ترك الثروة لأفرنجى (أجنبى) يديرها وانه يعيش فى الاوتيل اى اللوكاندة ، ولم يفهم الباشا فافهمه عيسى انه بيت ينزل به الغرباء نظير اجر للمبيت كالخان فى ايام الباشا .

وظن الباشا ان الولد صابه الفقر ، ولكن عيسى اخبره ان نزلاء الفنادق الآن هم الأغنياء ، وأخذ يشرح له نظام الفنادق والمضيفين والطهاة .

وقادهم البيطار (العطار) الى الفندق حيث كان الحفيد مع خلانه وأصدقائه فضحكوا منهم وطردوهم .

وسأل الباشا البيطار عن اصدقائه القدامى وهل بقى منهم أحد فأجابه فلان وفلان وفلان .. وذهب بهما الى دار احد هؤلاء الأمراء الذى اعتزل وتفرغ للتعبد والحياة الروحية .

ودخلوا عليه ومعه جمـــاعة من اصحابه يتحدثون فاستمعوا اليهم يذكرون أيام محمد على ولاظ اوغلى تابعه الذى دبر مذبحة المماليك ، وعن صيحة محمد على المزعجة التى لم تكن تفارقه فكان يزار فى مجلسه كزئير الأسد

حتى انه صاح تلك الصيحة يوما وهو جالس امام رسام أجنبى كان يرسم له صورته فسقط الرسام ميتا .

وان محمد على كان كيسا فى ادارته للأمور حتى انه علم يوما ان احد المديرين يغالى فى جمع الاموال فنادى المدير وامسك براسه واخذ ينزع شعرة من راسه واخرى من قفاه وثالثة من حاجبه .. الخ .. ولم يكن المدير يتألم الا ألما خفيفا ، ثم فجأة نزع محمد على من الرجل خصلة شعر دفعة واحدة فنبع منها الدم وصرخ المدير ، فقال له محمد على :

ـ هكذا تكون معاملة الرعية فى جباية الأموال ، تأخذ درهما من هنا ، وآخر من ههنا فيخف الوقع على الاهالى ولا يحسوا بالألم الشديد .

ومرة عين محمد على حسن باشا كويلى حاكما على احدى الولايات التى فتحها فخاف الرجل واعتذر لجهله اللغة العربية ، فقال له محمد على :

ـ يكفى أن تعرف كلمتين اثنتين هما : « فلوس » و « كرباج » .

وتنبه الرجال الى عيسى وصحبه فسألوهم ماذا يريدون فأفهموهم بخبرهم ، ودار حديث خرافة عن الذين عادوا للحياة ، ولم يطق الباشا الحديث فهب يعارضهم وينصحهم ! .

ثم أخذوا يسألونه اسئلة سخيفة عن ظلام القبر وعن الملكين وهل حاسباه باللغة العربية أم التركية ام السريانية، لأن هناك خلافا بين العلماء فى هذا الشأن .

والمهم ان الباشا وعيسى خرجوا من عندهم لان الباشا لم يعجبه حوارهم وخرج خلفهم تاجر كان قد دخل اثناء

الحديث بينهم قطيفة ، وأعطى الباشا كيس نقود لأنه عرفه .

وذهبوا الى محام شرعى ليرفع قضية للباشا يسترد بها الوقف ، وطلب المحامى توكيلا ، وهو شيء لم يسمع به الباشا فقال له انه شهادة شاهدين امام المحكمة بأن فلان ابن فلان قد وكل فلان ابن فلان فى المرافعات والمدافعات .. الخ .. ثم بعد ذلك تستحضر حجة الوقف أو صورة منها من السجل ، ويعقب ذلك القضية .

ويصف الكاتب السجلات وكيف تاها فيهـا للحصول على صورة الوقفية .

ثم ذهبوا الى المحكمة ويصف عيسى يوما بها .

ثم يصف بائعا للكتب لديه من الكتب القديمة ما لا يقدر بمال مثل : « حل الرموز لفتح الكنوز » و « اصول المراسم لفك الطلاسم » و « حسن ارشاد الناس فى استخراج الذهب والنحاس » و « القول المأثور فى تأثير البخـــور » و « قلائد اللؤلؤ والمرجان فى استحضار الجان » و « خير المواقيت لرؤية العفاريت » .

وذهبوا لاعلان الحفيـــد بالدعوى فى القصر ، وكان يتهرب من الدائنين المختلفين من الصيرفى الى الخيـاط والاسكافى والحلاق .

وطالت القضية ومرض الباشا ودار به عيسى على الأطباء الذين الزمه بعضهم بشراء الدواء من صيدليات بعينها خوف الغش .. وبعد مدة عثر على طبيب عرف ان داؤه هو قلق نفسى وان عليه تغيير الجو فسافرا الى الاسكندرية .

وجاء ذكر لوباء الطاعون فقص الباشا على عيسى كيف

حصد هذا المرض الناس أيام محمد على سنة ١٨٨٤ فحكى له عيسى عن تقدم الطب وعن الميكروبات والميكروسكوب الذى ترى به هذه الدقائق المتناهية الصغر .

واعتزل عيسى مع الباشا الذى بلى به يتذاكران ماضى الباشا وما وصلت اليه الحال الحاضرة من ترف فى الفنون وكثرة المطابع والكتب ، وانتشار وسائل الزينة وانتشار العلوم ووسائل الانتقال من مركبات خيول او بخار كالقطارات ، ثم تكالب العلماء على اقتناء المال والأراضى والاشتغال بالتجارة ، وعن التجار الذين لجهلهم وخمولهم استطاع الأجانب أن يستحوذوا بدلهم بتجارة البلد .

ثم اخذ عيسى الرجل الى احد الافراح حيث صرف الداعى المبالغ الضخمة على الحفل والموائد ، وعلى الطرب والغناء ، وينتقد الباشا الغناء والموسيقى ، وتدور مناقشة عن فائدة الموسيقى فى الشفاء من الأمراض ، وعن آلات الرسم والتصوير دون رسام .

ثم مقابلتهما لأحد العمد من الخلعاء فى حديقة الأزبكية وذهابه الى البار والى البورصة للمضاربة والى مكان للعب ثم الى المطعم الذى لم يفهم الباشا شيئا من الأطعمة التى به ، ثم ذهاب العمدة الى المرقص .. وانتهى الأمر بالعمدة الى رهن أرضه .

وانتهى الكتاب بنقاش عن فائدة المدنية الغربية من عدمه .. ولكن الكاتب ترك القضية مفتوحة ولم ينه القصة نهاية مغلقة تدل على انتصار اى العصرين ، الماضى أم الحاضر ...

إبراهيم المويلحى وابنه محمد
عـام الكف وعـام الكفء

من طرائف ذلك العهـــد ما حدث بين الصحيفتين « المؤيد » و « مصباح الشرق » من خصام وسجال دام سنينا ، وقـد حدث ان المويلحى الابن مؤلف عيسى بن هشام قد تشاجر يوما مع شاب من الاثرياء المتحذلقين فى مكان عام ، وما كان من الشاب واسمه «محمد نشأت» الا ان ضرب محمد المويلحى بالكف .

وكانت لطمة طيرتها الأخبار والأنباء وزادت فيهـــا ونشر على يوسف الخبر فى جريدته « المؤيد » بشماتة وسخرية وأطلق على السنة التى وقع فيها الحادث وهى عام ١٩٠٢ اسم « عام الكف » .

وفى ذلك الوقت كان الشاعر الكبير اسماعيل صبرى الذى ولد عام ١٨٥٥ وتوفى عام ١٩٢٢ واشتهر بتورياته المعروفة التى أذكر منها بيته :

طرقت البـاب حتى كل متنى
فلمـــــا كل متنى كلمتنى

والتورية هنا فى انه طرق الباب حتى كل اى تعب متنه اى ظهره فلما تعب ظهره كلمته .

والمهم ان هذا الشاعر كان من انصـــار الشيخ على يوسف فالف قصيدة منها :

اعرنى يابن ابراهيم صـــــدغا
اخوض به غمار الصـــافعينا

على ان المويلحى الأب لم يترك الفرصة تفوت فانتهز فرصة قضية طـلاق على يوسف من صفية عام ١٩٠٤ وسمى العام الذى رفعت فيه القضية « عام الكفء » سخرية من على يوسف الذى ثبت بحكم القضاء انه ليس كفؤا لمصاهرة العائلات الكبيرة .

رئيس المجلس التشريعى يشترى ثلاث جاريات :

كان على باشا شريف رئيسا للمجلس التشريعى فى أول عهد الخديوى عباس .

وفى أغسطس عام ١٨٩٤ حضر الى مصر عن طريق الواحات خمسة تجـــار رقيـق وأقاموا بالأهـرام ومعهم ست جاريات سودانيات بضاعة حاضرة جاهزة للبيع .

ورغم ان الرق قد الغى من كل بلاد العالم بموجب اتفاقيتين دوليتين هما اتفاقية برلين سنة ١٨٥٥ واتفاقية بروكسل عام ١٨٩٠ ، كما ان الخديوى اسماعيل قـد أصدر قانونا بالغاء الرقيق فى مصر عام ١٨٦٦ ، الا ان الأسر المصرية فى ذلك الحين بما فيهم أسرة الخديوى كانوا يحتفظون ببعض الجوارى ويشترونهن ويستخدمونهن فى قصورهم ، ولهذا لم يكن غريبا أن يحضر تاجر الرقيق ببضاعته ويعرضها للبيع دون خوف كبير .

والمهم ان التجار قد اتصلوا بعلى باشا شريف رئيس

الجلس وعرضوا عليه بضاعتهم فانتقى ثلاث جاريات منهن اشتراهن وبيعت الجاريات الثلاث الأخريات الى الدكتور عبد الحميد بك شافعى الذى احتفظ بواحدة وارسل واحدة للشواربى باشا صاحب الشارع المعروف باسمه فى القاهرة حاليا وارسل واحدة اخرى الى منزل حسين باشا واصف مدير مديرية أسيوط .

وفى ذلك الوقت كانت هناك مصلحة اسمها مصلحة الرقيق أنشئت لرعاية شئونهن وبحث احوالهن وما استتبع تطبيق قانون الغاء الرقيق من مشاكل واجراءات .

ونمى الى علم ضابط هذه المصلحة بمنطقة الأهرام اليوزباشى محمد ماهر ما حدث فقام بضبط القافلة ، وقبض على أربعة من النخاسين (تجار الرقيق) وهرب الخامس .

وتوجه الضابط الى منزل الدكتور الشافعى الذى اعترف بشراء جارية وارسال الاثنتين الأخريتين الى منزلى الشواربى باشا وواصف باشا .

وكان رئيس المصلحة ضابطا انجليزيا اسمه شيفر بك فلما رفع اليه تقرير بما حدث وبأن الضابط المصرى لم يستطع سؤال شريف باشا لحصانته البرلمانية ارسل شيفر يستدعى الباشا .

ولما وصل الباشا لم يسمح له الحاجب بالدخول بل أوقفه بالباب حتى يستدعيه المدير كأى متهم ، وطلبه المدير بعد فترة طويلة .

ثم وجه له شيفر تهمة الاشتراك فى الاتجار بالرقيق ، واحتج الباشا بمركزه وطلب السماح له بالاتصال بالخديوى أو الابراق له فرفض المدير .

وكانت الامتيازات الأجنبية موجودة وقتها فتحامى الباشا بها قائلا انه رعية ايطالية وليس للمدير أن يسأله فى غير حضور القنصل الايطالى ، وهنا أرسله شيفر مخفورا الى الادارة الانجليزية ليتصرف رؤساؤه .

وهناك تركوه فترة أخرى قبل ان يسمحوا له بارسال برقية استنجاد الى الخديوى .

واجتمع مجلس الوزراء المصرى برئاسة نوبار باشا لبحث الموضوع ثم أمر بتشكيل لجنة لتقرير هل ينطبق قانون الغاء الرق على من يشترى رقيقا ، أم ان العقوبة مقصورة على الاتجار فى الرقيق ولا تمتد الى عملية الشراء .

وشكلت محكمة عسكرية فى ٤ سبتمبر عام ١٨٩٤ قدم اليها النخاسون الأربعة والباشوات المشترين ما عدا شريف باشا حيث أرسلوا الى القنصلية الايطالية يسألونها هل هو ابطالى حقا كما يدعى أم لا ؟

واستحضرت الجوارى وسئلن فى المحكمة ، ويبدو ان محامى الشواربى أو أسرته قد أغروا وأثروا على الجارية زنوبة التى اشتراها لانها حين طلب منها تعيين الباشا الذى بيعت له ادعت انها لا تراه بقاعة الجلسة ، فلما سئلت عن أوصافه اختلط عليها الأمر فمرة قالت ان له لحية فلما سئلت ان كان بلحيته شيب ترددت ثم قررت انه لم تكن له لحية .

واستمرت المحاكمة أسبوعا ، وسمعت محاكمات الدفاع الذى أخذ يثبت ان الباشوات ذوى سمعة حسنة وان ما حدث لا يعتبر بيعا ولا تنطبق عليه شروط البيع وان القانون يقصر العقاب على الاتجار فى الرقيق دون الشراء ، وتعجب الدفاع لأن الجاريات قد أصبحن حرات

تسمع شهادتهن بينما الباشوات اصبحوا متهمين الى غير هذا الكلام الانشائى .

وفى النهاية صدر الحكم فى ١٣ سبتمبر بالحبس مع الشغل على الدكتور عبد الحميد الشافعى وببراءة الجاريتين بينما ثبت على الدكتور الشافعى تهمة شراء ودفع ثمن الجاريات الثلاث وارسال اثنتين الى منزلى المتهمين الآخرين .

وبقى المتهم الرابع شريف باشا ، ويظهر ان الحكومة الايطالية استنكرت التهمة لذا بعثت قنصليتها بالقاهرة الى السلطات المصرية تخطرها بأنه وان كان الرجل قد قيد نفسه بدفاترها كرعية ايطالية الا انه لم يدفع الاشتراكات المفروضة على الرعايا الايطاليين منذ عدة سنين ولذا يعتبر انه ليس من رعاياها ولا فى حمايتها وانه قد تنازل بفعله هذا عن حمايتها .

وموضوع الحماية هذا كان احد مساوىء نظام الامتيازات التى كان السلطان قد منحها للأجانب فى مصر ، ولما كان كل من يقيد فى دفاتر احدى القنصليات الأجنبية كرعية من رعاياها له حماية خاصة ولا يحاكم او يحقق معه الا امام محاكم القنصلية أو المحاكم المختلطة ، فان اغنياء المصريين كانوا ينتقون دولة أوروبية يحتمون بها مقابل مبالغ يدفعونها لها ، وكانت القنصليات الأجنبية فى مصر تتخذ من هذه الامتيازات مجالا للكسب والتجارة .

المهم ان شريف باشا لما علم بذلك رفع استقالته الى الخديوى من رئاسة المجلس التشريعى بسبب مرضه واعتكف فى بيته .

وقبلت استقالته وارسل السردار طبيبين انجليزيين للكشف على الباشا فقررا انه فعلا مصاب بمرض فى القلب وانيميا .

وعلى اساس من هذا التقرير طلب من الباشا كتابة اعتراف وطلب العفو عنه ففعل ، واصدر الخديوى أمرا بالعفو عنه .

المسرح والفناء فى عهد جويدان :

يعتبر جورج أبيض اهم مسرحى انتجته تلك الفترة ، فهذا الممثل الذى ولد فى بيروت عام ١٨٨٠ وحضر الى مصر للعمل بمسارحها ارضاء لهوايته واعجب به الخديوى عباس فأوفده الى باريس فى بعثة لدراسة التمثيل على نفقته عام ١٩٠٤ وعاد الى مصر بعد ست سنوات ليقدم رواياته باللغة الفرنسية كان من أكبر أعمدة التراجيديا .

وقد قدم رواية الملك أوديب لسوفوكليس وأودبب هذا هو الملك الذى تزوج أمه دون أن يعرف .

ومثل عطيل شكسبير مأساة الغيور الذى قتل زوجته لمجرد شك .

على ان أشهر رواياته كانت لويس الحادى عشر التى ألفها لافيني . ولويس هذا تآمر وهو ولى العهد على قتل والده واعتلى عرش فرنسا عام ١٤٢٣ وعاش حياته فى مؤامرات وكان يخشى على نفسه من الأغتيال فحبس نفسه فى قلعة بليسيه لى تور حتى مات عام ١٤٨٢ .

ثم مثل جورج نفس رواياته الفرنسية بالعربية ، واشتهر جورج بأدوار التراجيديا وفشل حين مثل

كوميديات موليير التي ترجمها ومصرها محمد عثمان جلال كالشيخ متلوف ومدرسة النساء وغيرها .

ثم اشترك مع سلامة حجازى فى المسرح الفنـــائى وكونا فرقة .

ومن مغنين ذلك العهد كان يوسف المنيلاوى الذى ولد بالقـــاهرة عام ١٨٥٠ وتوفى عام ١٩١١ وأعجب به الســـلطان عبد الحميد فقربه اليه وسجلت له عدة أسطوانات قليلة عام ١٩٠٨ منها « كل من يعشق جميل » وانت فريد الحسن . وبسبب قربه للسلطان عبد الحميد كتبت شركة اسطوانات عمر أفنـدى ، على اسطواناته « سمع الملوك » .

ومحمـد عثمان الملحن والمغنى الذى نظم له الشاعر اسماعيل صبرى اغنية :

قدك أمير الأغصـــان   من غير مكابر
ورد خدك سـلطان   على الأزهار
والحب كله أشجان   يا قلب حاذر

ومحمد عثمان ولد عام ١٨٥٥ وتوفى عام ١٩٠٠ وكان قد سافر مع عبده الحـــامولى الى الآستانة فسجنهما الســـلطان عبد الحميد بسبب اغنية غناها الحامولى اعتبرها السلطان سياسية ومطلعها :

عشنا وشـفنا سنين   ومن عاش يشوف العجب

ومرض عثمان وعبده الحامولى بالسل وماتا به .

ولا أستطيع أن اعدد مغنين وفنانى ذلك العهد فقـد كانوا كثيرين حيث ازدهر فيه الغنـــاء بأنواعه الفردى والمسرحى والأوبرالى وتوارثنا عنه عدة أغان لا زالت على الالسنة منها .

يا قمرة يا قمـــرة يا قمورة
يا محنى ديل العصـــــفورة
ويا بنـات اســـــكندرية
مشيكم على البحـــر غيه
تلبســـــوا الكشمير بتلى
والشـفايف ســـــكرية

كما ازدهر عالم العوالم والمقصود بهن قـائدات فرق غناء ورقص مخصصة للاستئجار فى الحفـلات والافـراح كبيبة كشر التى توفيت عام ١٩١٧ وأشهر اغانيها « الحنة الحنة يا قطـــر الندى » وأمينة شخلع التى توفيت عام ١٩٢٤ واشهر اغانيهـــا « قـولوا لعين الشمس ماتحماش » .

ولا يمكن ان ننسى منيرة المهدية ومسرحها .

واهم حدث فى حياة منيرة هو انه عندما خلع الانجليز الخديوى عباس زوج جويدان عن العرش ومنعـــوا مجلس الوزراء المصرى من الاجتماع لبحث الموقف فلم يجد رئيس الوزراء حسين باشا رشدى غير ان يجمع مجلسه فى بيت منبرة المهدية .

وكان المسرح المصرى مزدهرا فى عهد عباس والفرق كثيرة وقد تجمعت كلها فى حى الأزبكية وكانت المسارح قليلة وحكومية وهى مسرح الـكوميدى ومسرح الأزبكية ومسرح قصر النيل والفرق مضطرة للعمل بالمقاهى .

وفى عام ١٨٩٢ بنت فرقة سليمـــان القرداحى اول مسرح أهلى خاص بهـــا وفى سنة ١٨٩٦ أقيم مسرح لفرقة ابو خليل القبانى بالعتبة وبنى بالخشب واحترق سنة ١٩٠٠ ثم بنيت دار التمثيل العربى فى حى وش البركة .

وفى عام ١٩١٠ بنى الخديوى عباس شارعا فى أرض كان يملكها وبه صالات ومسارح وكازينوهات ذلك هو شارع عماد الدين فانتقلت الفرق للاشتغال بمسارحه كمسرح عباس ومسرح بريتانيا وكازينو دى بارى ... الخ .

المنفلوطى والصاعقة :

ومن أدباء العصر المنفلوطى الذى ولد سنة ١٨٧٦ وتوفى عام ١٩٢٤ ببلدة منفلوط وتعلم بالأزهر وعمل فى تحرير جريدة « المؤيد » وله أسلوب ادبى صحفى تحرر فيه بعض الشىء من المحسنات البلاغية وجمع مقالاته فى كتاب « النظرات » و « العبرات » . وقد كتب بأسلوبه روايات عدة ترجمت له من الفرنسية فأعاد صياغتها ولقت نجاحا كبيرا فى وقتها كرواية « الشاعر » و « فى سبيل التاج » و « مجدولين » .

على ان أهم حادث فى حياته هو القصيدة التى ألفها ضد الخديوى عباس وسجن بسببها .

وفى سنة ١٨٩٧ عاد الخديوى من العاصمة الصيفية وهى الاسكندرية الى العاصمة الشتوية وهى القاهرة وفى ذلك الوقت كانت الحكومة المصرية بوزرائها ومكاتبهم وكبار موظفيهم تنتقل الى الاسكندرية فترة الصيف من أشهر مايو الى آخر سبتمبر ثم تعود الى القاهرة من أول اكتوبر كل عام .

والمهم انه كانت هناك مجلة ادبية اسمها « الصاعقة » يصدرها أسبوعيا صحفى وأديب أسمه « احمد فؤاد » .

وظهر عدد المجلة وفى صفحته الأولى قصيدة عنوانها : « تهنئة مرفوعة الى عباس حلمى لمناسبة عودته القاهرة » .

وكان مطلع القصيدة :

قدوم ولكن لا اقول سعيد
وملك وان طال الملك سيبيد

واقتطف منها :

تذكرنا رؤياك ايام انزلت
علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا
مصوب سهم بالبلاء سديد
فلما توليتم طفيتم وهكذا
اذا اصبح عباس وهو عميد
كأنى بقصر الملك أصبح بائدا
من الظلم والظلم المبنى مبيد
أعباس ترجو ان تكون خليفة
كما ود آباء ورام جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا
نكون ببطن الأرض حين تسود

واهتزت مصر للقصيدة وقامت قيامة القصر واصدر ناظر الحقانية أمرا الى النيابة باعتقال صاحب الجريدة والتحقيق معه .

واعتقل احمد فؤاد فقرر أول الأمر انه ناظم القصيدة وانه سيطبعها مرة ومرات لتنتشر بين الناس وان كان يأسف على شيء فهو أسفه على ان عدد المجلة تأخر فى الطبع ولم يظهر فى نفس اليوم الذى عاد فيه الخديوى الى القاهرة .

ثم عاد احمد فؤاد وغير اقواله فقرر ان على يوسف صاحب المؤيد اعطاه نسخة القصيدة وطلب منه نشرها ودفع له مالا مقابل ذلك على ان يقول اذا سئل عنها ان صاحب المقطم والشيخ البكرى هما اللذان اعطياها له .

وامر وكيل النيابة السيد / يوسف سليمان ازاء هذا التضـــــارب فى أقوال الرجل باستدعاء صاحب المطبعة التى طبع فيها العدد .

وقال صاحب المطبعة ان احمد فؤاد احضر القصيدة وكان يرافقه السيد / مصطفى لطفى المنفلوطى .

وقبض على المنفلوطى الذى اعترف بأنه ناظم القصيدة ولكنه لم يكن ينوى نشرها .

وذاعت القصيدة بمصر وتدوولت لدرجة ان طلبـــة المدارس أخذوا ينسخونهـــــا باليد ويبيعونها لبعضهم وغيرهم .

وكان هناك صحفى اسمه سليم سركيس يصدر مجلة اسمها « المشير » كلفته سلطات القصر بأن يعثر على شاعر يقلب القصيدة الى مدح فى الخديوى حتى يقضى على الضجة التى اثيرت حولها .

وكان الشـــــاعر المطلوب هو الشيخ عثمان الموصلى والطريقة التى اتبعها لقلب القصيدة هو ان شطر القصيدة فأخذ كل شطر من أبياتها والف من عنده شطرا ثانيا له على نفس الوزن فى مديح الخديوى بقلب المعنى .

ونشرتها مجلة « المشير » فأصبحت :

قـــدوم ولا اقـــــول ســـــعيد
على فاجر هجـــــــــــو الملوك يريد

لاضرابه بيت من اللـــــؤم عـــامر
وملك وان طـــال المـــدى سيبيد
رمتنا بكم مقـــــدونيا فأصـــــابنا
رخاء عن الجـدب المبيـد بعيـــد

وهكذا .. وطبعا هناك فرق كبير فى البلاغة .

وقدم الثلاثة للمحاكمة ، صاحب المطبعة واحمد فؤاد صاحب المجلة ومصطفى لطفى المنفلوطى الشاعر .

ويظهر ان احمد فؤاد كان يعلم انه سيحكم عليه مهما دافع عن نفسه فانتهزها فرصة للنيل من الأسرة المالكة بدفاعه الشهير الذى قال فيه :

« ان الرعية لم تسر حقا بقدوم الخديوى ، وان محبة الرعية لملكها أمر اختيارى ، وما من ملك الا وله من لا يسر بقدومه والملك لا يستطيع ارغام رعيته على محبته لأن الملك يملك أجسام الناس ولا يملك قلوبهم .

وانه ليس أول من جاهر واعلن للناس مظالم الخديوى فان أحدا لا ينسى قصة مدفع سعيد التى نشرتها صحف مصر فى وقتها .

فقد استورد الجيش مدفعا جديدا من فرنسا وطلب سعيد تجربة المدفع فى أحد الميادين العامة ، ونقل المدفع الى أحد الميادين حيث أمر باطلاقه فاقترب منه أحـد رجال الحاشية وقال :

ـ هل يأمر أفندينا بأن نتمهل قليلا حتى يمر الناس .

فكان رد الخديوى سعيد :

ـ ليس عندى وقت ، أطلق النار فنحن لم نستلم الناس بالعدد .

ثم ذكر الرجل وقائع أخرى نشرت عن الخـــديوى

اسماعيل منها انه اراد يوما ان يجمع مبلغا من المال فصنع شارات من الجوخ وزعها على أهالى طنطا مقابل خمسمائة جنيه للشارة .

ومنها ان رجال اسماعيل حاصروا مرة بلدة بالوجه القبلى هرب اليها احد خصوم اسماعيل فامر بضربهـــا بالمدافع .

ومنها ان الخديوى اسماعيل حين غضب على وزير ماليته اسماعيل صديق ســـــلمه الى حرسه الخاص فكبلوه بالحديد ووضعوه فى غرارة (شوال) وأخذوه فى باخرة نيلية والقوه فى وسط النيل ..

والمهم ان الحكم صدر ببراءة صـــــاحب المطبعة ، وسجن أحمد فؤاد عشرين شهرا ، وتفريمه وايضـــا سجن مصطفى لطفى المنفلوطى سنة وتفريمه .

وبعد ذلك بفترة كوفىء يوسف سليمان وكيل النيابة الذى حقق القضية واستطاع ان يكشف عن الشـــاعر بأن عين رئيسا للوزراء لفترة من الزمن .

الاحتفال بهروب العريس يوم الصباحية :

اذا كانت مذكرات الأميرة جويدان قد بدات بوصف زفاف مصرى فى عهد زوجها الخديوى عباس فان حفلات الزفـــاف المصرية لم تسترع انتباه الأميرة وحدها ، بل استرعت انتباه كتاب أوروبيين قبلها وبعدها ، وقد يكون من الجميل أن نختم هذا الكتاب بهذه القصة عن زفاف مصرى استوحيتها من الكاتب الانجليزى ادوارد لين الذى سنعرف خبره فى سياق القصة .

فهل تتخيل ان العريس فى القاهرة القديمة كان يهرب من عروسه صـــــباح ليلة الدخلة فى حفـل يسمى « الهروبة » .

ولنبدأ القصة من أولها :

اصبح حنفى ناضجا واراد الزواج ، ولكنه لم يقبل الزواج باى بنت من بنات الأسرة ممن وصفتهن له أمه ، فقد كان يعلم ان لها غرضا فى تزويجه من احدى بنات اخواتها ، بينما ابوه يفكر فى بنات اخوته .. وحتى لا يغضب أى الطرفين قرر الالتجاء الى الخاطبة ، ففى ذلك الوقت اى فى أوائل القرن التاسع عشر حوالى عام ١٨٣٥ ، لم يكن من السهل رؤية بنات الطبقة المتوسطة أو الأغنياء سافرات فى مدينة القاهرة للانتقاء للزواج .

وقدمت له الخاطبة تقريرا بأوصاف العرائس اللاتى عندها .. والخاطبة هنا هى الخالة « ام على » الدلالة التى تحضر كثيرا الى الدار لتبيع الحلى والاقمشة وغيرها الى السيدات ، وهى فى الوقت نفسه ، وبحكم دخولها الكثير من البيوت ، تعـــرف الجميع ، وترى البنات والشيخات ، ففلانة بنت فلان جميلة رشيقة صغيرة ، ولكنها لا تملك مالا ، واهلها ليسوا اغنياء كاهل فلانة التى ليست فى جمـــال الأولى .. وهكذا .. هـــذه سمينة ، وتلك رفيعـــة ، وثالثة طـويلة ، وأخرى قصيرة ، و ...

واستقر راى حنفى على خطبة البنت نرجس . ودهبت أم حنفى وخالته وأخته مع الخاطبة لزيارة أم نرجس ، للتعـــارف ، وفى ذهنهن أنهن اذا لم تعجبهن العروس ستكتفين بالزيارة .

ودخلت نرجس تحمل صينية القهوة تقدمها لهن .. ووجدن ان البنت عروس مقبـــولة لا يزيد سنها عن الرابعة عشر ، فالبنت اذا زاد سنها في ذلك الزمن عن هذا الحد ، تعتبر قد فاتها قطار الزواج لان بها عيبا ما خفيا .. واستطاعت البنت ان تقدم القهـــوة دون ان تسكبها من الأقداح ، ثم انهن قمن بتقبيلها واحتضانها والتمليس على شعرها الجميل .. الخ .

واثبت فحصهن ان العروس مقبولة ، ولا عيب بها ، فصرحن لأمها بفرضهن من الزيارة .

ووافق أهل العروس على الزواج بعـــد ان وصفت الخاطبة العريس لنرجس بأنه شاب صغير السن رشيق القوام حليق الذقن ، حسن الهندام ، يحب البقاء فى البيت ، ويكسب المال الكثير .

وذهب حنفى ، وابوه ، وبعض كبار اسرته الى المقابلة وكان والد نرجس قد استدعى اخوة له وأقارب ، وسأل أبو حنفى ، عن المهر المطلوب فقيل له انه ألفى ريال ، ولكن أهل العريس استكثروا المبلغ ، ودارت مساومة ، انتهت بالاتفاق على الف ريال ، ثم قرأ الجميع الفاتحة كتأكيد للاتفاق ، وحدد ميعاد دفع المهر وكتب الكتاب بعد يومين .

وفي اليوم الذى حدد ، ذهب حنفى قبل الظهر ومعه الأصدقاء والأقربون الى بيت نرجس ، الذى اجتمع فيه عدد من أهلها .. واستقبلهم أبوها .. ولم يكن هذا الحفل الكبير فقد اقتصر على الاقربين .

وجلس حنفى أمام ابو نرجس باعتبـــاره وكيلا للعروسة ، على الأرض فى مواجهة بعضهما وامام الفقيه

المأذون له بالتزويج من الوالى ، وأمسك كل منهما اليد اليمنى للآخر بحيث يكون الابهامان مرفوعين متلاصقين.. ووضع المأذون فوق يديهما منديلا ، ثم أخذ يعلن كل من العريس وابو العروسة ما يقـــولاه ، واشار الى وكيل العروسة ليقول خلفه :

ـ زوجتك ابنتى نرجس البكر .. على صداق قدره .. ثم لحنفى :

ـ وانا قبلت زواجها لنفسى وضمها لكتفى ، واتعهد بحمايتها ، وليشهد الحاضرون على ما اقول .

وبعد انتهاء المراسم قرأ الحـاضرون الفـاتحة ، ووزع الشراب المحلى بالسكر على الحاضرين ، ووزعت مناديل مطرزة على أهل العروس . واعطى المأذون منديل العريس وقد ربطت فيه قطعة نقود ذهبية .. وبقى الجميع لتناول الغداء .. واتفق على تحديد موعد ليلة الدخلة .

والزفاف الذى ذكرته هو عن وصف قدمه الكاتب الانجليزى ادوارد وليام لين المولود سنة ١٨٠١ والمتوفى سنة ١٨٧٦ فى كتـابه « المصريون المعـــــاصرون » (المعاصرون لعهده طبعا) وهو الـكتاب الذى ترجمته السيدة فاطمة المحجوب وطبع سنة ١٩٥٧ . ولين هـذا انجليزى احب مصر ، وعاش بها ، وألف عنها ، وترجم الى الانجليزية الف ليلة وليلة ، كما وضع قاموسا عربيا انجليزيا .. وقد زار لين مصر ثلاث مرات الأولى عام ١٨٢٥ والثانية من عام ١٨٣٣ الى ١٨٣٥ والثالثة من عام ١٨٤٢ الى ١٨٤٩ فاستطاع أن يعرف الكثير عن مصر والمصريين فى ذلك العهد .

وتحددت ليلة الدخلة بعد عشرة أيام من عقد القران ، وحددت ليلة الجمعة ، فقد جرت العادة ان يحـــــدد

موعد الافراح فى ليلة الجمعة (أى مساء الخميس) أو ليلة الاثنين (أى مساء الأحد) .

وفى الأيام العشرة بين الليلتين ، ليلة كتب الكتاب ، وليلة الدخلة ، أرسل حنفى ثلاث مرات بهـــدايا من الفاكهة والحلوى الى أهل العروس ، هذا طبعا خلاف ما أرسله لعروسه نرجس نفسها من هدايا أخرى كشال او قرط أو خلافه من الأشياء الثمينة .

وفى هذه الأيام ، كانت أسرة نرجس مشغولة بشراء الجهاز أى أثاث ومنقولات منزل الزوجية ، وهى أشياء كثيرة مختلفة ، فمن الأرائك والصحاحير (صناديق محكمة لحفظ الملابس) والدواليب الى الحصير والسجاد وأدوات المطبخ ، ثم الثياب والمجوهرات ، وغير ذلك من الأشياء التى تحتاجها العروس ، التى انفق ابوها عليهـا ضعف ما دفعه حنفى من مهر .

وقد اهتم الأب بأن يكون كرسى العمامة فخما غالى الثمن ، فهذا الكرسى المصنوع من خشب الخيزران ، وله مظلة وغطاء الحرير الطبيعى السميك المحلى بخيوط من الذهب لتوضع عليه عمامة العريس عندما يعود من عمله ويخلع ملابسه .. ولكن الأب رفض ان يشترى كرسيا آخر لعمامة العروسة ، فهو ليس على هـــذه الدرجة من الثراء ، وطبعا لم تستطع البنت أو أمهـا الاعتراض أو اقناعه بضرورة شراء مثل هذا الكرسى .

ونقل الجهاز من دار والد نرجس الى بيت العريس محمولا على طابور طويل من الجمال سار حوله الأولاد والبنات وبعض الأحباء يغنون ويصخبون .

وفى بيت العريس جرت استعدادات أخرى ، فقـد كلف حنفى من علق الفوانيس والنجف ، كبيرها وصغيرها،

على جوانب البيوت الموجودة بالشارع الذى به البيت ، كما عاقت عسرات من القناديل الصغيرة بين الدور ، وجميعها تضاء بالزيت ، وزينت الخيوط والحبال التى ربطت بها الفوانيس بعدد كبير من الاعلام الحريرية الخضراء والحمراء ، اما فى البيت فان الباب قد فتح وأعدت الموائد للضيوف طوال هذه الايام الثلاثة .

وكان الأصدقاء والمعارف والاهل ، يرسلون الى البيت صوانى من النحاس الأحمر أو من الخشب المشغول والمنقوش مغطاة بمناديل من الحرير مطرزة بقماش آخر ، وقد حملت الصوانى هدايا من الأرز واللبن والشموع وغيرها .

وفى هذه الايام الثلاثة أيضا لم تنقطع فرقة موسيقية عن العزف كما أحضرت عدة راقصات وعدد من المغنيين والمغنيات .

وفى نفس الفترة قامت الخاطبة ام على التى عرفت حنفى على نرجس ، وكذلك الداية المختصة بتوليد ام العروس والتى قامت على توليدها لنرجس ، ثم البلانة المختصة بعمليات الاستحمام والتزيين والتقاط الشعر الزائد من جسد العروس ، وأيضا الدادة وهى التى حملت نرجس طفلة وقامت على تربيتها ، والمرضعة التى ارضعت العروس وهى وليدة محافظة على صدر امها من الترهل .

قامت هذه الفرقة من السيدات بشبك شيلان من الكشمير والحرير المخطط فوق الكتف الأيسر عند جنوبهن .. وركبت كل واحدة حمارا وسرن فى موكب يتصدره عدة رجال يدقون الطبول .

وطاف هذا الموكب على بيت صديقات نرجس تدعوهن

لمرافقتهـــا الى الحمام .. ويسمى هـذا الركب موكب « المدهناك » .

وكان ابو نرجس رغبة منه فى التوفير ، يريد أن يقلل من عدد المدهنات ولا يستأجر لهن حميرا أو طبالين ، او يشترى شيلان ، وتكتفين بالسير على ارجلهن واطلاق الزغاريد بدل الطبول ، ولكن زوجته لم يعجبها هذا فليس عندهم الف نرجس .

وفى ظهر يوم الأربعاء خرجت العـــروس وخاصتها وصديقاتها الى الحمام فى زفة الحمام .. وقد تقـدم الموكب رجلان يحمل كل منهما صينية مستديرة مغطاة بغطاء من الحرير وعليها الملابس الجديدة التى ستلبسها العروس بعد الحمام ، وخلفهما السقاء .. والسقا هو رجل يحمل قربة كبيرة ، والقـــربة هى بالونة ضخمة مصنوعة من الجلد تملأ بالماء يربطها السقا على ظهره ويدور يوزع بها المياه على البيوت التى لم تكن قد دخلتها المياه فى ذلك الوقت .. واليوم هو يسير مع الموكب وقربته مملوءة ، ومعه كوب من النحاس يصب فيه الماء من فتحة القربة ويسقى المارة ممن يطلبون الشرب تبركا بالعروس .

وخلف العروس وصاحباتها سار رجلان اولهما حامل القمقم وهو يحمل قمقما من الفضة (والقمقم يشبه زجاجة رائحة كبيرة) وبه ماء الورد او ماء الزهر ، وهو ينثر الماء على المارة بين الحين والحين .. أما الرجل الثانى فحامل المبخرة ، ويحمل مبخرة أختلط فيها البخور المعد لمنع الحسد والمختلط برائحة عطرة .

وكانت قريبات العروس وصديقاتها المتزوجات لسن

فى طليعة الموكب ، اثنتان ، اثنتان ، وهن تلبسن الحبرة الحريرية السوداء (جلباب يغطى الجسد كله) .. ثم خلفهن العذارى تلبسن الحبرة البيضاء أو تتلفحن بشال ابيض ، وخلف الجميع سارت العروس وخلفها وحولها أربعة رجال يحمل كل منهم عمود مظلة قرنفلية زاهية اللون يظللن بها العروس .

والمهم فى مظلة العروس أن يكون لونها زاهيا ملفتا للأنظار ، كالاحمر الوردى ، أو تكون مخططـــة بألوان زاهية كالاحمر والأصفر .. الخ . وكان كل عمود من اعمدة المظلة التى يحملها الرجال ينتهى بمنديل مطرز معقود حول قمته ، والمظلة ليس لها الا فتحة واحدة من الأمام فهى مغلقة من أعلى ومن الخلف ومن الجانبين .

وكانت نرجس تلبس رداء يخفيها تمـاما وقد غطيت بشال أحمر من قمة رأسها الى قدميها فلم يظهر منها الا القصبة ، وهى قرص من الذهب رصع بالماس والزمرد واللؤلؤ وضع فوق رأسها وشبك فى الشال من الخلف وتدلى منه من الأمام فروع من المـاس ، وغـــيره من المجوهرات وقد لبست فوق رأسها طرطورا أبيض من الورق المقوى .

والقاهرة مدينة يغلب عليها الحرارة ، كما ان ملابس نرجس العروس وسيرها تحت تلك المظلة يجعل جسدها يسخن ويفرز عرقه ، لذا فقد سارت أمامها امرأة تحمل مروحة كبيرة من ريش النعام الأسود مزينة بمرآة فى الجزء الأسفل من سطحها الأمامى ، وسارت المرأة حاملة المروحة ووجهها للعروس وأخذت تمشى الى الخلف تهوى لها .. وحول نرجس وخلفها سارت أربع من صديقاتها .

ومن الضرورى عند خروج الموكب من منزل العروس

أن ينعطف الموكب ، ويسير ناحية اليمين حتى ولو كان الحمام من الناحية الأخرى ، فانهم يتشاءمون من السير جهة اليسار ، كما انه لا يهم ان يسير الموكب فى الطريق الأقصر المؤدى الى الحمام ، بل عادة يكون السير فى منعطفات وشـــــوارع كثيرة بالحى ليراه أكبر عدد من الناس .

وعادة ما يكون والد العروس قد استأجر الحمام كله فى تلك الليلة ، فيخصص لابنته وصديقاتها وأهلهـــا ، وفى نهاية الموكب يسير بعض الموسيقيين والطبالين .

وتطلق النسوة الزغاريد بين الحين والحين ، وتجاملهن بعض السائرات فى الطريق أو المتفرجات أمام دورهن من السيدات التى يتصـــادف وترين الموكب فيحيينه بزغرودة أو اثنتين .

وتقضى العروس وصاحباتها عدة ساعات بالحمـــــام تلهون وتغتسلن وتأكلن ، وتستمعن الى العـــوالم اللاتى تغنى لهن لتسليتهن أثناء الاستحمام .. وفى النهـــاية يعود الموكب الى بيت العروس نرجس ، والذى يدفع نفقات الحمام وزفة الحمام هو والد العروس .. أما فى منزلها فيكون هناك عشاء قد أعد لها ولرفيقاتها ولغيرهن من الأهل والصحاب من الرجال والســـيدات أحباب الأسرتين ، وهذا العشاء على حساب العريس حنفى .. وبعد العشاء يستمر السهر والغناء والرقص ، الذى تقوم به العوالم .

وكانت الحناء قد أعدت وعجنت فى طشت نحاسى كبير يشبه صينية كبيرة مما يوضع به الفسيل فى أيامنا هذه .. واخذت نرجس قطعة من الحناء وضعتها فى راحة

يدها .. وقامت كل من السيدات والصاحبات بوضع قطعة من النقود الذهبية « كنقوط » فى كفها فلما امتلأ ، الصقت النقود على حافة الطشت بالحناء ، ثم أخذت قطعة أخرى ، وفتحت كفها لتجمع نقوطا جديدا .

وبعد جمع النقوط بدأت عملية تخضيب العروس وصاحباتها بالحناء فوضعت الحناء فى كفيها وقدميها وربطت بقطع من القماش بقيت حتى صباح الخميس حيث أزيلت الخرق وبقى أثر الحناء ذو اللون الأحمر البرتقالى الداكن أو الفاتح حسب نوع الحناء .

وفى يوم الخميس خرجت نرجس من بيت أبيها الى بيت حنفى فى زفة العروس التى تشبه زفة الحمام، وان زادت عليها .. وطبعا ليست كل الأسر على نفس المستوى من الثراء لذلك فان بعضها يستغنى عن زفة الحمام ويكتفى بزفة العروس هذه .

وقد سار أمام الزفة رجلان يحملان السيوف ويتبارزان، وليس على جسدهما غير السراويل ، مثلهما مثل لاعبى الشيش ، واثنان آخران من الفلاحين يرتديان الجلباب الصوفى ويتبارزان بالعصى المسماة نبابيت فى لعبة التحطيب ، وقد اشترك فى السير أمام الموكب بعض من ذوى المهارات والحيل بألعاب مختلفة لأنهم يعلمون ان أسرتى العروسين ستجزل لهم العطاء .

ولما كان السقا رجلا متخصصا فى حمل الأثقال ، فان عمله يقتضى أن يحمل قربة الماء مليئة ويدور يفرغها فى البيوت عدة مرات فى النهار ، فان بعض السقائين من ذوى العضلات القوية يقومون بعمل غريب هو حمل قربة مليئة بالرمل الممزوج بالماء لتصبح ثقيلة الوزن ،

يحملونها ساعات طويلة لا يقوى عليها سائر السقايين ، ويصل وزن هذه القربة الى حوالى المائة كيلو يحملها السقاء عند غروب شمس اليوم السابق للفرح ويظل يحملها طول الليل وطوال يوم الفرح وقبل الزفة .

وقد سار سقاء من هذا النوع فى الزفة وهو لا زال يحمل قربته حتى غروب الشمس ، اى انه حمل القربة أربع وعشرين ساعة كان فيها تحت رقابة فلم يسمح له بالجلوس فى هذه الساعات الطوال أو النوم ، والطريقة الوحيدة التى سمح له فيها بالراحة كانت هى أن يقعد القرفصاء .

والسقاء يتحمل هذه المشقة لشيئين ، الأول المكافأة التى ستدفع له ، والثانى حصوله على لقب « قيم » . . والسقائون يتنافسون فى الحصول على هذا اللقب الذى يدل فى نظرهم ونظر الناس على الصحة والقوة والقدرة على التحمل ، ولعل هذا هو السبب فى أننا لا زلنا حتى اليوم نطلق على من يسير متباهيا بقوته الجسدية لقب « قيم » كنوع من السخرية ، ذلك ان عصرنا الحديث لا يحتاج الى القوة الجسدية لغير أغراض الصحة ؛ ويحتاج أكثر منها الى القوة العقلية والذهنية بعد أن اصبح كل شىء يخضع للعقل والعلم .

والمهم ان زفة العـــــروس نرجس وصلت الى بيت عريسها حنفى ، حيث صعدت الى الدور العلوى المخصص للحريم ، وكانت قد أعدت لهم وليمة فتناولوا الطعام ثم هنأوا وانصرفوا وبقى مع نرجس أمها وأختها وقليلات من القريبات كخالتها وعمتها ، وكذا بقيت البلانة فهذه هى ليلة الدخلة .

وفى هذا الوقت كان حنفى جالسا مع أصحابه ومدعوويه بالدور الأرضى المسمى بالسلاملك والمخصص للرجال ، وبعد العصر وقبل الغروب ذهب الى الحمام وبدل ملابسه ، ثم عاد وتناول مع أصحابها طعام العشاء .

ثم خرج مع أصحابه فى « زفة العريس » الى احد المساجد القريبة ، وفى طليعة الزفة الموسيقيون بطبولهم ومزاميرهم ، وعند الذهاب للمسجد لم يكن هناك نظام للزفة .

ولكن عند خروج حنفى وأصحابه من المسجد نظمت الزفة وسارت ببطء عائدة الى منزل العريس الذى من المفروض انه لا يبدى لهفة على الذهاب الى عروسه ، لذا يدور الموكب بطرقات المدينة غير متعجل .

وعند العودة يسير الموسيقيون أمام الزفة يتبعهم حاملو المشاعل ، وخلفهم رجلان يحملان عارضة أو عمودا ممدودا أفقيا ، يحمل كل منهما طرفه على كتفيه ، وعلق به حوالى الستين قنديلا ، أو أكثر فى حلقات أربع كل حلقة فوق الأخرى ، وترسل هذه القناديل وغيرها من المشاعل ضوءا شديدا ساطعا يشبه ضوء الكشافات ويبهر العيون .

وخلف الأضواء والمشاعل سار حنفى فى حلقة كبيرة من أصدقائه وقد ارتدى قفطانا مخططا بخطوط حمراء وجبة حمراء ، وعلى يمينه ويساره اثنان من أصدقائه وقد لبسا ملابس تشبه ملابسه ، وحولهم باقى الأصحاب يمسك بعضهم شمعة ، وبعضهم يمسك بفرع تمر حنة

مزهر ، او فرع مزهر لنوع آخر من الأشجار ، اما حنفى وصاحباه فلم يحملوا شيئًا .

وقد لاحظنا فى زفة العروس وزفة العريس ان كلا منهما يسير ومعه اثنان يلبسان مثله تماما ، وذلك لأن المصريين يخافون من العيون الحاسدة ، ويعتقدون ان هذا السير الثلاثى يكسر من حدة العين .

وبين لحظة واخرى يقف الموكب لحظة ليستمع الى غناء أحد الواقفين بالحلقة لاحدى اغنيات الزفاف .. وكما يتوقف الموكب يتوقف دق الطبول حتى لا يغطى على صوت المغنى .. وعادة كان يسير بعض الموسيقيين أيضا خلف الموكب .. وحين يصل الموكب الى دار العريس ، يدفع النقوط للموسيقيين ، ثم يترك أصدقاءه يجلسون للتدخين وشرب القهوة والشربات ويصعد الى العروس .

ولما كان بحنفى بعض الخجل فانه لم يصعد فورا ، وانتظر حتى قاده أحد أصـــدقائه وصعد به درجات الحريم ، ثم تركه ليدخل الى الحجرة التى بها عروسته نرجس .

وكانت نرجس واقفة ومعها البـــلانة ، فاعطى حنفى البلانة بعض النقود فتركت الحجرة وخرجت . ووقف أمام عروسه وحدهمـا وقـد غطت رأســها ووجهها بشال .

وأخرج حنفى مبلغـــــا قدمه لنرجس « ثم كشف وجهها » .. ثم مد يده ليرفع الشال ، وتمنعت قليلا ، أو تصنعت التمنع ، ولكنه أزاح الغطاء عن وجهها وهو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ! ثم نظر الى وجهها وقال : « ليلة مباركة » .

وردت عليه بتمتمة مخنوقة : « الله يبارك فيك » . ولكن صوتها كان غير مفهوم .

وكانت المراقبات من السيدات قد شاهدن المنظر من خارج باب الحجرة فانطلقت زغاريدهن .

ونزل حنفى الى اصحابه ، وبقى معهم حوالى الساعة ، ثم عاد الى عروسه .

وفى صباح اليوم التالى أو « الصباحية » حضر الى الدار بعض أصدقاء حنفى ، فخرج حنفى معهم وهربوا الى الريف فى نزهة قضوا فيها النهار كله ، وتسمى هذه النزهة : « الهروبة » .

وقبيل الهروب نجحت محاولات الأصدقاء فى اعادة حنفى الى منزله الجديد ، لأنه من المفروض أن حنفى باعتباره عريسا جديدا لا يندفع الى البيت مظهرا ما عنده من عواطف ، كما أنه لا يقبل على سجن الزواج ومسئولياته بمحض اختياره ، ولهذا فهو قد هرب صباح زفافه .

وبعد هذه المسرحية التدللية المرحة استطاع أصحابه اجباره على العودة لعش الغرام .. وهكذا عاد حنفى عند الغروب فى زفة صغيرة ، تقدمها بعض الموسيقيين وقد حمل أصدقاؤه الورود .

وعادة ما تكون حفلة الهروب هذه على نفقة أصدقائه الذين يشتركون فى دفع نفقاتها .

وفى اليوم السابع للزفاف ، أو « السبوع » استقبلت نرجس صديقاتها وقريباتها اللاتى أتين لزيارتها وتفصى أخبار زواجها وعريسها ، وقد حضرت بعضهن فى الصباح وحضرت أخريات فى المساء .. وفى المساء ايضا استقبل

حنفى بعض أصدقائه ، واحتفل بهم باقامة حفلة ذكر ختمت بعشاء .

وكان اليوم اربعين بعد ليلة الدخلة هو اول يوم يسمح فيه للعروس بالخروج من المنزل ، فخرجت نرجس فى الصباح مع بعض صديقاتها الى الحمام ، وعدن فى العصر الى المنزل وتناولن الطعام وانصرفن .. أما سبب اختيار اليوم الأربعين لختام شهر العسل فيبدو ان المصريين القدماء من الفراعنة كانوا يحددون الشهر بأربعين يوما .

المهم انه بعد هذا اليوم سارت حياة نرجس وحنفى عادية ، وقد أنجبا صبيانا وبناتا ، ولم أزرهما لانهما عاشا قبل عصرى بأكثر من قرن كامل لأنهما من سكان قاهرة القرن التاسع عشر .

وهذان العروسان وزفافهما الذى قلت انى أخذت وصفه من كتاب سير ادوارد لين عن مصر هو وصف لزفاف عروسين من الطبقة المتوسطة ، اما الطبقات الغنية فهناك بعض الاختلافات التى أوردها لين .

فهناك وصف لزفاف بنت السيد عمر مكرم نقيب اشراف القاهرة وقت محمد على باشا والذى بايع محمد على بالولاية على مصر ، يحدثنا لين عن أشياء عجيبة لا يمكن تصديقها ولا تصديق أن أحدا يقوم بها الا بسبب من الفقر الشديد المؤلم فمثلا يقول السير لين وان قرر انه لم ير ذلك ، انما ينقل عن أصدقاء مصريين ، ان رجلا سار أمام زفة العروس وقد أحدث شقا فى بطنه وأخرج أمعاءه وحملها أمامه على صينية من الفضة وسار امام الزفة حتى نهايتها ، ثم أعاد أمعاءه الى مكانها ، وظل

طريح الفراش عدة أيام حتى شفى من آثار هذا العمل الأحمق الذى يبعث على التقزز والاشمئزاز ، كما ان رجلا آخر فى نفس الحفل اغمد سيفا فى ذراعه امام جموع المتفرجين فى الزفة ، وربط الجرح على السيف دون أن يخرجه من ذراعه بعدد من المناديل تضرجت بالدماء .. وقد فعل الرجلان هذه الافعال بسبب الطمع فى مكافاة سخية .

واكن خلاف هذين المنظرين البشعين فى فرح بنت لرجل معين له مكانة خاصة وشهرة خاصة ، نجد لين يصف زفة الأغنياء من اصحاب الحرف أو غيرهم من الأعيان بأن الزفة الفاخرة كان يسير فيها أحيانا عدد من العربات تحمل كل منها جماعة ينتمون الى حرفة أو تجارة واحدة ، وكل جماعة تقوم باستعراض فيؤدون صنعتهم أو حرفتهم والعربة سائرة فى الموكب ، وعادة ما تمثل فى هذه الأفراح جميع الحرف المعروفة فى القاهرة ، كما ان عربة خاصة كانت تسير ، وبها جماعة يصنعون الفهوة ويقدمونها لمن يطلبها من المتفرجين والمارة .

وكانت العروس تركب عربة أوروبية مغلقة ، أو تركب هى وبقية النساء حميرا..وفى أسبوع الزفاف تستحضر الى الدور فرق طوافة تقوم بتمثيل بعض المسرحيات الفكاهية التافهة التى يقوم الضحك فيها على تمثيل مناظر الضرب والخيانة .

وفى بعض بيوت العرسان الأغنياء كانت تعلق ثريا أو نجفة كبيرة ضخمة امام الدار ، تبلغ من ضخامتها انها تجذب انظار الناس وتجعلهم يتجمعون حولها للتفرج عليها ، والحديث عن ثراء العريس والعروس وأهلها ،

ولما كان اهل الدار الذين يخافون من عيـــون الناس الحاسدة التى قد تتسبب فى سقوط النجمة أو فى نوع آخر من الأذى للعريس او العـروس ، فانهم يسقطون كلما رأوا تجمعا كبيرا جرة من أعلى الدار الى الحوش فتنكسر وتحدث ضجة تستلفت الأنظار الحاسدة وتبعد حسدها .

بقيت أفراح الطبقات الفقيرة ، وهذه قال لين عنها انها لا تختلف عن أفراح الطبقات المتوسطة الا فى التقليل من المظاهر والنفقات ...

فهرس

حكاية عائلة جويدان ٧
الاميرة تصف الافراح والحفلات الرسمية ٢١
كيف كانت الحياة فى سراى المنتزه ٢٩
كيف استطاعت ان تحضر الحفلات الرسمية ٤٣
لماذا كانت تفضل الاقامة فى الآستانة ٥٥
كيف نشأ العداء بين الخديوى واللورد كرومر ٦٥
زيارات الخديوى لأوربا ٧٨
العلاقات الخاصة بين الخديوى وامراء العائلة المالكة ٨١
زوجة الخديوى السابق ٣٨
منشأ الحريم وتطوره ٨٧
الحريم عند سلاطين آل عثمان ٩٣
الحـــــريم فى مصر ١٠٠
دراسة عن :
عهـــــد جويدان ١١١

رقم الايداع ٤٠٩٦ — ٨٠
الترقيم الدولى ١ — ٧٥ — ٧٠٣١ — ٩٧٧

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشـــم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من « كتاب الهلال » الشهرى بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر .

سوريا : ٣٠٠ : ق.س ثلاثمائة قرش سورى
لبنان : ٢٥٠ ق.ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الأردن : ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت : ٣٥٠ فلسا « ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق : ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقى »
السعودية : ٤ ١/٢ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »